الأدب العربي الحديث

الدكتور

محمد عبد المنعم خفاجي

- الجزء الأول -

١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

الطبعة الأولى

الناشر

مكتبة الكليات الأزهرية

حسين محمد إمبابي وأخوه محمد

٩ ش الصنادقية - الأزهر - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

تصـــدير

— ١ —

قضايانا الثقافية المعاصرة كثيرة متعددة ، والذين يناقشونها أكثر عددا ، والذين يريدون أن يصلوا إلى الحقيقة من وراء هذا النقاش قليل جدا ، بل وأندر من الكبريت الأحمر كما يقول المثل القديم ، ذلك لأن الذين يخوضون معارك النقاش الثقافى هم فى الأغلب لا يريدون إلا أن ينتصروا لموقفهم وحده ،لأنه فى رأيهم هو الذى يجب أن يسود،أما النظر إلى الموقف الآخر والفكر الآخر ، والافادة من هذا وذاك ، فأمر« بعيد» عن التصور ، بعيد عن الامكان،وحينما كان القدماء ،وفى مطلعهم أرسطو، يقولون:«من المناقشة ينبثق النور» ، أصبحنا نؤمن بأن المناقشة يجب أن تكون انتصارا لموقف ، وخضوعا لفكر واحد لاغير . .

ومن البدهى أن قضايانا الثقافية كثيرة جدا وأن الجدل حولها يتشعب إلى كل واد ، وأنه لم يعد الجدل يتجمع حول أصول ثابتة ، تضىء الطريق للباحثين والمتناظرين والمتجادلين . .

وقد أصبح النقاش سبيلا إلى كثرة وجوه الخلاف ، وليس طريقا إلى تجميع الآراء وتوحيد الفكر ، ولا رغبة فى التصافى الفكرى بين طبقات المفكرين .

لقد أثيرت قضايا كثيرة حول الاصالة والمعاصرة، وحول التراث واللغة، وحول القديم والجديد ، وحول دعائم بنائنا الثقافى والفكرى ، وحول الشعر ومدارسه . .

وخاض المتجادلون فى لجى من الجدل العقيم ، ولم يصلوا بعد إلى شىء . لأن هـؤلاء المتجادلين إما أن يكونوا خاضعين لأيديولوجيات معينة لا يريدون إلا أن ينتصروا لموقفهم وحده ، وإما أن يكونوا جاهلين بأصول القضايا التى يتحدثون عنها ، وإما أن يكونوا متجاهلين للأصول التى يجب عليهم ألا يتخلوا عنها .

فى قضية مثل اللغة : نجد بيننا من يدعو إلى الفصحى الأصيلة ، ومن يدعو إلى فصحى مبسطة ، ومن يدعو إلى العامية المتفاصحة ، ومن يدعو إلى العامية الموغلة فى البعد عن الاعراق العربية . . وكان من الممكن أن ينظر المتجادلون إلى الشعوب الأوروبية التى تتمسك بلغاتها القومية ، وترى فيها صمام أمان ، وداعى وحدة ، ورباط تلاق بين مجتمعاتها ، بل وعنوان شخصية مستقلة للأمة . وقد أخذت اسرائيل بعد قيامها تحيي اللغة العبرية القديمة ، ولم يذهب أحد هناك إلى وجوب اصطناع إحدى اللغات الأوروبية الحديثة لتكون لغة قومية لدولتهم .

وفى قضية التراث نرى بيننا من يزدرى تراثنا العربى القديم كله . ويدعو إلى طرحه ونبذه فى العراء ، واصطناع تراث آخر مجلوب لنا من الخارج — مع أن تراث كل أمة هو حياتها وروحها وعنوان وجودها ، ودليل شخصيتها ، وهو المنجم الحضارى الذى تستمد منه الأمم أصول بقائها وتطورها وازدهارها الفكرى . .

والأمم التى لا تراث لها لاريب فى أنها أمم قصيرة الباع فى سلسلة تطورها الحضارى ، ونحن نعلم أن تراثنا الحضارى قامت عليه حضارة العالم خلال ألف عام أو يزيد ، وعلى أصوله قامت الحضارة الأوروبية الحديثة .

هذا فضلا عن خلافاتنا الكثيرة حول قضايا الأصالة والمعاصرة ، حتى لم يعد أحد يعرف حدود الاصالة ، ولا التزامات المعاصرة ، ولامدى الخطوات التى يجب أن نخطوها هنا أو هناك . . ودع عنك قضية القديم والجديد، فما أكثر ماقيل فيها ، وماأقل من قالوا كلمة الانصاف وحدها .

وعندما نقرأ ماقيل حول مدارس الشعر القديمة والجديدة يهولنا كثرة ماقيل ، وقلة حياد القائلين فى هذه القضية الخطيرة الكبيرة .

ومن الغريب أن القدماء من أسلافنا فى جدلهم الفكرى قد اصطنعوا علما يدور حول أمور النقاش والمناظرة والجدل ، وسموه « أدب البحث والمناظرة »،وحددوا فيه الأصول الفكرية ، التى يجب أن يعتصم بها المتناظرون ويلوذوا بها ، ولايحيدوا عنها .

وعندما ننظر إلى شعرنا العربى ، فنجد أنه كان عموديا طيلة حياته التى تمتد أكثر من ألفى عام ، وأن كل التجديدات التى دخلت عليه فى جميع العصور . . كانت تلتزم بهذه العمودية ، أو تسير فى اطارها ، وأن هذا الشعر العربى الذى أصبح صورة فكر وتراث وحضارة وأمة ، قد جاءنا اليوم من يدعون إلى التخلى عن هذه العمودية كليا،لتسير القصيدة على نظام التفعيلة وحدها ، ولنبعد بالشعر عن أصوله العمودية ، وعن موسيقاه الشعرية كذلك ، بل من يدعون إلى تحطيم هذه العمودية ، ونبذ جميع شعرائها فى القديم والحديث ، والنظر إليهم على أنهم متخلفون ، لايصح أن نسير على منوالهم .

إذن ، فالأديب يكتب وهو يتحمل مسئولية بقائه أو عدم بقائه فى طوفان الحياة الحديثة ، ولا يمكن أن نضع معايير أو نستخلص قوانين

لما يجب أن يكون عليه الأدب فى العصر الحديث ، لأن الأدب هو الأديب نفسه .

لا شك أننا حيال ذلك نصاب بدوار شديد لأن الجديد مهما كان جديدا ، ومهما كان أصيلا وغير مستورد ولا مجلوب من الخارج، لا يمكن أن يكون هدما للقديم ، ولا احتقارا ونبذا له ، وكان من الأولى أن أن يصطلح هذا الجديد على التعاون مع القديم فى الرقى بالأذواق ، وعلى العمل من أجل ازدهار النهضة الشعرية ، وخلق مجالات ومنافذ متعددة أمام الشعر والشعراء .

وكما ابتكر الأندلسيون نظام الموشحة ، ولم يقولوا إن هذه الموشحة إلغاء كامل للقصيدة العمودية ، كنا نحب أن يقول شعراء القصيدة الحرة : إن هذه القصيدة وجه من وجوه التجديد ولا يمكن أن تكون إلغاء تاما للقصيدة العمودية .

وليس وجود شعراء يكتبون شعرهم على التفعيلة الواحدة معناه إلغاء الشعر العمودى كله ، قديمه وحديثه ، ونبذ هذا الشعر وتسفيه شعرائه ، ورميهم بالقصور والتخلف .

تلك قضية من قضايانا الفكرية التى لا يريد أحد من دعاة التجديد أن يلتزم بكلمة إنصاف حولها . وإذا كان هناك فى أوروبا دعاة أو ثائرون على الشعر الكلاسيكى ، فليس معنى ذلك أن الكثرة الغالبة قد تخلت عنه إلى الأبد ، وإذا كان بعض النقاد الأوروبيين يكتب عن رومانسية الكلاسيكيين وكلاسيكية الرومانسيين ويعترف ببقاء الكلاسيكية وتطورها ، وبالأصول الكلاسيكية فى مذهب الرومانسيين — أفلا يكون

ذلك دليلا واضحا على أنهم لا يريدون التخلى عن التراث الكلاسيكى فى الشعر الأوربى .

وفى الغرب يعترفون بأن دعاة تحطيم هذه الأصول التراثية فى الشعر ، هم قلة قليلة جدا من الناس ، وهذه القلة تستورد دعواتها من أجل التحطيم من الفكر الماركسى المناهض لفكر التراثية ، ولو كانت هذه التراثية فى الشعر مثلا .

هذه نماذج من الدعوات الجديدة التى تتصل بأصول ثقافتنا المعاصرة، ودع عنك قضية القومية وقضية الدين مثلا ، وما يثيره أنصار الجديد حولها مما لا يمكن أن يخطر على بال ، ولا أن يكون مجالا لتصور المتصورين، ولا لجدل المتجادلين .

وأحب أن أقول فى صدق وبساطة ووضوح : إن هذه الخلافات المثيرة لم تعد طريقا من طرق التجديد ، ولم تصبح أمرا ممكن التحمل والتصور الفكرى ، لأن أصول المناظرة حول القضايا الأصلية التى تثير كل هذا الجدل والخلافات غير موجودة ، أو غير منظور اليها ، على الاطلاق .

بل والأخطر من ذلك أن تصبح الكلمة التى نستعملها فى حياتنا غير ملتزمة بأية قيمة واقعية أو مثالية ، وفى هذا صارت الكلمة هى واجهة إعلامية لكل أمور حياتنا المعاصرة ، وقد يكون غلبة عنصر الاعلام على كل مجالات النشاط الفكرى المعاصر فى حضارة اليوم هو سبب ذلك كله، مما يجعلنا نعيش على أفكار السوفسطائيين ، ونعود إلى الجلوس على مائدتهم .

وفى عام ١٩٣٦ أعلنت الدولة عن جوائز لأحسن بحث عن أسباب

النجاح فى العصر الحاضر ، وكانت الجائزة لرأى يقول : إن أهم أسباب النجاح هو الدعاية أو الاعلان ، وقد نكون منذ ذلك التاريخ نسير مقيدين فكريا بقيود هذه النظرية الجديدة ، نظرية الاعـــلام ، أو قل : الاعلان أيضا .

لا علينا إذا قلنا أن أهم واجب فكرى يجب أن يعمل من أجـله المفكرون لدينا هو أن يبقى للكلمة شرفها وصدقها ومدلولها الحقيقى ، وأن لا يغلب عليها عنصر الشعارات أو الاعلام . . فذلك هو دون ريب أهم أصل يمكن أن تقوم عليه ثقافتنا أو قل حضارتنا الجديدة المقبلة . وعندما تعود الكلمة ميزانا صادقا واعيا للحقيقة وجدها سوف تقل وجوه الخلاف حول الكثير من قضايانا الفكرية المثارة والمثيرة أيضا .

— ٢ —

ومن الحقائق المسلمة أن الثقافة الاستشراقية السائدة بيننا الآن إنما هى ثقافة عصر الاستعمار الأوربى لبلادنا العربية والاسلامية .

وهذه الثقافة تهدف إلى تقديم ثقافتنا الاسلامية على ضـــوء مناهج جديدة وأفكار جديدة يقصد منها :

أولا : زعزعة إيماننا بديننا وبمقوماتنا وبأنفسنا .

ثانياً : سلب العرب كل أصالة وابتـــكار ، وكل مفاخرهم الثقافية والحضارية .

ثالثاً : التأكيد على أن العرب عالة على أوروبا قديما وحديثا فى كل شىء ، فهم عالة على الثقافة الاغريقية قديما ، والثقافة الاوربية حديثا .

رابعاً : إذاعة المبادىء الفكرية التى تتمشى مع الاستعمار وتساعده فى تفتيت القوى الروحية والفكرية فى العالم الإسلامى .

ولبست ثقافة الاستشراق السائدة بيننا الانتاج نصف قرن مضى فهى ثقافة مشت فى ركاب الاستعمار وكان يجب أن تنتهى بانتهاء عصر الاستعمار ولكن أراد المخططون لتغريب العرب أن تظل سائدة فى مناهجنا وجامعاتنا وبين أدبائنا لتعمل مع القوى الخفية التى تعمل بيننا على تحطيم مواريثنا الثقافية والفكرية ، والروحية ، الأصيلة .

ومع كل مالقيته وتلقاه الثقافة الاستشراقية بيننا من مساندة فقد انهار الاستشراق وثقافته بعد انتهاء عصر الاستعمار . . . وضعفت مدارس الاستشراق فى أوروبا ضعفا لا مثيل له، يلمسه كل مطلع على تطور الثقافة العالميـــة .

إن كل أدبائنا ومفكرينا منذ آخر القرن التاسع عشر إلى اليوم هم كلهم أو على الأصح جلهم — تلامذة للمستشرقين وأفكارهم ومناهجهم، تتلمذوا عليهم وعلى مناهجهم فى فهم الثقافة الاسلاميـــة وفى عرضها وفى نشر كنوزها .

وكان للدكتور طه حسين وتلاميذه الأثر الاكبر فى سيادة المناهج الاستشراقية فى ميدان الأدب ودراساته .

وقد أخذ الدكتور هيكل كل نظريات المستشرقين فى ميدان التاريخ. ولم يهتم بالسيرة إلا تأثرا منه بالمستشرقين واهتمامهم الكبير بها .

ولم يضع أحمد أمين شيئا فى فجر الاسلام وضحاه وظهره ، فى مجال الدراسة التاريخية لأدبنا ، إلا ما وضعه المستشرقون الذى سار عـــلى حذوالهم .

ودراسة الأدب على ضوء المنهج التاريخى هذه الدراسة التى تقسم الأدب إلى عصور : وتحدد لكل عصر أصوله الأدبية المستقاة من معالمه السياسية والتاريخية . والتى تهتم قبل كل شىء بالعرض أكثر من اهتمامها بالجوهر .. هذه الدراسة إنما هى دراسة استشراقية خالصة .

بل إن النظرة إلى ماضينا الثقافى على أنه تراث لهى نظرة استشراقية خالصة تهدف إلى حصر الاهتمام بثقافتنا الاسلامية على أنها تراث، وعلى فئة خاصة من المتخصصين، وعلى أنها لا يصح بعد اليوم أن تكون مجالا لاهتمام الأمة كلها . ولا منبعا لأفكارها وحياتها ، ومصدرا لكل مقوماتها الروحية والفكرية الأصيلة ،

ثم فى أكثر آراء المستشرقين نقد لمواريثنا وتقاليدنا ولأفكارنا، وتحطيم لقوانا المعنوية الأصيلة ، ولكل خصائصنا وكل مفاخرنا على مر العصور .

إن كل هذه المناهج الاستشراقية وكل هذه التأثرات الواضحة بآراء المستشرقين .. يجب أن تنتهى إلى الأبد من محيطنا الأدبى والثقافى والعلمى، ليحل محلها دراسة النظريات والمذاهب والمدارس الثقافية الاسلامية المحضة.

ولا ننسى أن ثقافة المستشرقين قد عملت على ابعاد الذوق الادبى عن قضايانا الادبية من جانب، وأوجدت متناقضات كثيرة فى ميدان الدراسة الأدبية من جانب ثان . وابتعدت بالعقل العربى عن الاصالة والعمق والدقة ، والتركيز من جانب أخير .

إنه لا يصح أن نستفتى فى أحكامنا الادبية ذوقا أعجميا أجنبيا دخيلا

على أدبنا وتراثه ومنابعه ومصادره ، ويجب أن نعود إلى ثقافتنا الادبية القديمة الأصيلة ، لنستفتيها فى كل شىء وكل مشكلة تعترضنا ، فعندها ولا ريب الجواب .

وباختصار شديد أقول :

١ — إن المذاهب والمناهج الأدبية الدخيلة علينا هى من صنع الاستشراق عدو العرب والاسلام والثقافة الإسلامية العربية .

٢ — إن كل آرائنا الراهنة فى الادب والنقد هى أثر لمدارس المستشرقين ولأفكارهم . بل هى تقليد محض للاستشراق الغربى الذى كل همه تحطيم قيمنا الادبية الاصيلة .

٣ — إن الاستشراق ساند الاستعمار الغربى لبلادنا وعمل على تحطيم معنوياتها . وتحطيم إيماننا بأنفسنا ، وعلى تزييف التاريخ وأحكامه .

٤ — العصبية والصليبية هما المحرك الأول للاستشراق .

٥ — نادى المستشرقون بقضايا زائفة كثيرة ، وساروا فى كل ميدان يؤدى بنا إلى المتاهات الفكرية ، وإلى تحطيم كل قيمنا وموارينا الأصيلة .

٦ — لا غنى لنا بعد عن الاهتمام من جديد بدراسة أدبنا وثقافتنا وتراثنا على أسس ومناهج ومذاهب جديدة ، تصل الحاضر بالماضى ، وتزن كل شىء بموازين عادلة لا حيف فيها ولا اضطراب ولا تناقض .

٧ — إن جعل الحضارة الإسلامية هي حضارة العصور الوسطى افتئات على الحقيقة وعلى التاريخ، ووضع لحضارة العرب في دائرة محدودة مؤقتة .

٨ — إن إغفال التطور التاريخي للنظريات والأفكار والمبادىء في ظلال الاسلام وحضارته لهى أثر من آثار العصبية الذميمة التى تحرك المستشرقين وتقودهم فى أحيان كثيرة إلى الخطأ الذى لا يحتمل، بل إلى الدجل وإلى التضليل الذى لا يطاق .

— ٣ —

فالفكر العربى القديم كانت له بالإسلام رسالة ، وكانت له بقضايا الحضارة والانسانية صلة ، وكان هو الفكر المقروء فى كل مكان ، وفى كل شعب ، وفى أوساط العلماء ومراكز البحث والجامعات فى الشرق والغرب على حد سواء .

وكان الكتاب العربى — على المشقة الكبيرة فى نسخه وإيصاله إلى القارىء المثقف — يشق طريقه إلى كل بيت وكل مدرسة ومعهد وجامعة ، وإلى الشباب فى كل أنحاء الشرق والغرب ، باعتباره رائدا إلى المعرفة والبحث والعلم والتقدم، على مختلف ألوان هذا الكتاب وبحوثه ودراساته، أدبية أو لغوية أو دينية ، أو فكرية ، أو علمية .

لذلك كان الكتاب العربى القديم يمثل على الحقيقة الفكر العربى الإسلامى تمثيلا كاملا ، وكان الكتاب الأدبى منه يمثل أدبا عالميا رفيعا مقروءا فى كل مكان ، من فرنسا وإيطاليا وأسبانيا وقبرص وكريت إلى سواحل أفريقيا الشمالية ، إلى شعوب آسيا على اختلاف أجناسها وثقافاتها، إلى أواسط أفريقيا السمراء أو السوداء على حد سواء .

إنه منذ القرن الثامن الميلادى حتى القرن السابع عشر كانت الثقافة العربية الاسلامية ، ثقافتنا نحن أبناء الأمة العربية ، ثقافة عالمية ، وكان أدبنا عالميا بكل معنى الكلمة ، وكان كتابنا المنسوخ باليد والمخطوط كتابا عالميا يسير فى الشرق والغرب حاملا مشعل النور والثقافة والعلم والمعرفة .

لا نذكر لك عظمة استقبال سيف الدولة لنسخة خطية أهديت إليه من مؤلف كتاب « الأغانى » ، أبى الفرج الاصفهانى ، ولا نذكر لك كيف اشترى محمد بك أبو الذهب من امراء مصر فى العصر العثمانى نسخة خطية من كتاب « تاج العروس » من مؤلفه محمد مرتضى الحسينى الزبيدى بمائة ألف درهم ، ووضعها فى مكتبة مسجده المسمى باسمه المواجه للجامع الأزهر .

لن أسترسل فى الحديث بل أدع المستشرقة المشهورة د. ريغريد هونكة تحدثنا فى كتابها « شمس العرب تسطع على الغرب » — ص ٣٥٤ :

« إن هذه القفزة السريعة المدهشة فى سلم الحضارة التى قفزها أبناء الصحراء ، والتى بدأت من اللاشىء لهى ظاهرة جديرة بالاعتبار فى تاريخ الفكر الانسانى ، وهى انتصاراتهم العلمية المتلاحقة التى جعلت منهم سادة الشعوب المتحضرة فى ذلك العصر ، وكانت فريدة فى نوعها لدرجة تجعلها أعظم من أن تقارن بغيرها . . إن ما حققه العرب لم تستطع أن تحققه شعوب كثيرة أخرى كانت تملك من مقومات الحضارة ما قد كان يؤهلها لهذا . . »

فى القرن الثامن عشر ترجم وليم جونز المستشرق الانجليزى المعلقات وأخذ ينادى الشعراء الانجليز داعياً لهم إلى ترك الأخيلة والصور والمعانى

العقيمة التى تدور حولها قصائدهم ، وإلى الاقتباس من الآفاق الكبيرة التى تدور فيها قصائد المعلقات .

هذا كله حدث ونحن نعيش شخصيتنا العربية الاسلاميـة كاملة . . أما اليوم ، وبعد التأثير الأجنبي فى فكرنا وثقافتنا وبعد انتشار الجامعات فى بلادنا ، وبعد كثرة المتعلمين فى محيطنا ، وبعد انتشار وسائل المعرفة وبعد سهولة طبع الكتاب وتداوله ورخص ثمنه فى محيطنا ، فاننا نقرأ أن مجلتين أدبيتين فى بلاد العروبة — وهما الأديب والعرفان — على وشك أن تقفلا لضآلة مواردهما المالية من التوزيع ، ونقرأ صرخات الصحفى السعودى عبد القـدوس الانصارى على صفحات مجلته « المنهــل » العتيدة لاختلال موازنة ميزانية المجلة اختلالا كبيرا لفقدان القراء الذين يرتفعون بنسبة التوزيع إلى المستوى الملائم ، ونقرأ فى صدر « الأديب » عدد نيسان ١٩٧٢ للاديب عيسى الناعورى — أحد أدباء الأردن — يعرض أزمة الكتاب العربى الذى أصبح يستهدى ولا يشترى ، والذى لا يبلغ المطبوع من نسخ أى كتاب منه أكثر من ٢٠٠٠ أو ٣٠٠٠ نسخة كحد أعلى ، وقد علل لهذه الأزمة العنيفة بأنها أثر للبيت وللمجتمع وللمدرسة ولمفهوم الثقافة عند الشباب العربى المعاصر .

إن ذلك كله سبقه إغلاق مجلاتنا الثقافية والأدبية العتيدة : المقتطف ـ الرسالة ـ الثقافة ـ مجلة الكاتب المصرى ـ مجلة الكتاب ـ مجلة الكتاب العربى ـ مجلة علم النفس الخ . والمجلات الباقية مهددة بالاغلاق كذلك لضعف توزيعها .

إن هذه الظاهرة المؤسفة فى رأيى سببها الأول والأخير ، وقبل كل شىء ، هو فقدان الثقافة العربية الأصيلة المعاصرة ، وضعف الحافز الروحى الدينى الاسلامى فى نفوسنا ، فدييننا فرض العلم والمعرفة والقراءة فرضا . ثم هو تبعيتنا الذليلة للثقافة الغربية ، لا فى الجانب العلمى ، بل فى الجانب العقائدى والأفكار والأخيلة والصور وحتى البلاغة الأدبية .

إن الثقافة العربية الاسلامية مفقودة فى محيــط جامعاتنا ومعاهدنا ومختلف مستوياتنا الثقافية ، لأننا أحللنا محلها الثقافة الغربية المحضــة ، وأكثر ما يكتب اليوم لا يعبر عن منطلقاتنا الروحية والفكرية والتراثية الأصيلة ، لأنه وافد إلينا أما من الشرق أو الغرب ، وليست له صلة بموارثنا العقلية الأصيلة إنه نموذج غربى فى الثقافة .

يكاد يكون أعلى كتاب فى التوزيع اليوم هو الكتب الاسلامية وكتب التراث . ولكن زحف الجهل على العقول يهبط دائماً بنسب التوزيع ولا يجد له علاجا حازما وسريعا .

الكتاب الأوروبى يطبع منه ملايين النسخ ، والكتاب العربى اليوم إن اتيحت له فرصة لطبعه لا يطبع منه سوى المئات من النسخ أو الالف أو الألفين أو الثلاثة ، حتى كتب الاعلام فى بلادنا ، تدور حول هذه النسب ، اللهم إلا الكتب الجنسية والسياسية والدعائية المعروفة والتى تعمل على ترويجها أياد خفية كثيرة .

ولقد رشح طه حسين ممثلا للادباء العرب المعاصرين لنيل جائزة نوبل مرارا فلم يفز بطائل .

لا مجال لأن يصبح أدبنا العربى المعاصر اليوم أدبا عالميا إلا بشىء واحد هوأن تنطلق حياتنا وثقافتنا وأفكارنا وكتبنا من منطلق شخصيتنا العربية الاسلامية الاصيلة ذات التقاليد العريقة فى الحضارة والانسانية والابتكار والعلم والبحث .

ولا مجال لأن نفكر اليوم فى قضية أن يصبح أدبنا عالميا ، أى مقروءا من كل الطبقات المثقفة فى العالم ، أو بمعنى أنه يحمل كل خصائص العقلية المبتكرة المجددة الرائدة ، أو بالمعنيين معا ، ما دمنا بعيدين عن مصادر ثقافتنا العربية الاسلامية الباهرة . . وما دامت تبعيتنا للثقافة الغربية كاملة ، وما دام الحافز الروحى للعلم مفقودا بيننا ، حتى لتلهينا وسائل المدنية الغربية عن واجبنا فى القراءة والبحث ، وأنا أقـــول قضية أؤكدها ، وهى أن الأدب العربى القـــديم أعظم أصالة ، وأعرق تجديدا ، من أدبنا الحديث ، وهذا هو ما عبر عنه « شارل بيلا » فى أثناء زيارته المملكة العربية السعودية منذ عامين حين قال : اقرأ أدبكم القديم ، أدب الجاحظ والتوحيدى والمعرى والمسعودى ، أما أدبكم الحديث فلا أقرؤه لانه صورة منقولة ومشوهة للادب الاوروبى .

تيار التجديد فى الأدب الحديث

— ١ —

يبدأ الأدب الحديث فى العالم العربى فى رأى العديد من الأدباء ببدء العصر الحديث ، أى بالحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ م ، نظراً لأثرها السياسى والفكرى والعلمى كما يقولون ، ولأنها فتحت مجالا للصلات الحضارية بين الغرب والعالم العربى ، ويؤكد ذلك جورجى زيدان فى كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » ، وعمر الدسوقى فى كتابه « فى الأدب الحديث » ، وأحمد حسن الزيات فى كتابه « تاريخ الأدب العربى » ، وطه حسين وزملاؤه فى كتابيهم « المفصل » ، و « المجمل فى تاريخ الأدب العربى » .

وممن ذهب إلى ذلك أيضاً العقاد فى مقالة له نشرت فى مجلة قافلة الزيت التى تصدر فى الظهران (عدد مارس ١٩٦٢) ، ذهب فيها إلى أن عصر النهضة فى الأدب العربى يبدأ بالحملة الفرنسية .

وينوه عبدالله عنان فى بعض كتبه التى أرخ فيها لقتل سليمان الحلبى بالمحكمة الفرنسية التى حاكمته تنويهاً بالغاً . وكذلك يحيى حقى فى بعض مقالاته ، وكثير من الدارسين من قبل هؤلاء . ومن بعدهم مثل د. حامد حفنى داود فى كتابه « تاريخ الأدب العربى الحديث » مجدوا أثر الحملة الفرنسية .

وفى رأيى أن الأدب الحديث لم يتغير بعد الحملة الفرنسية عما كان عليه قبلها ، فضلا عن أن هذه الحملة ، لم يكن لها صدى فى نفوس المصريين والعرب إلا الشعور بالمرارة والألم لمحاولات الاستعمار الانقضاض على دولة عربية كبيرة .

ويؤيدنى فى ذلك الدكتور أحمد عزت عبد الكريم رئيس الجمعية المصرية

للدراسات التاريخية ، ففى بحث ألقاه فى مؤتمر الدراسات التاريخية الذى دعت إليه الجمعية فى القاهرة خلال شهر إبريل عام ١٩٧٤ ، بمناسبة مهرجان الجبرتى ، يقول الدكتور أحمد عزت فى بحثه الذى كان عنوانه « لمحة عن الجبرتى ومكانته بين المؤرخين » ما نصه : من الصعب أن نذهب مذهب القائلين بأن الحملة الفرنسية تركت أثراً استمر باقياً من بعدها على المجتمع المصرى والثقافة المصرية ، إننا لاننكر أن الحملة كان لها أثرها السياسى فى تحطيم النظام القائم ، وفى فتح باب ما سمى بالمسألة المصرية . . أما التأثير الاجتماعى والثقافى فمن الغلو فى القول أن نذهب مذهب القائلين بأن الفرنسيين وجهوا المجتمع المصرى والثقافة المصرية وجهة جديدة ، بل لقد ذهب كل ما أقاموه بذهابهم »(١) .

هذا هو ما يقوله شيخ المؤرخين المعاصرين ، وهو أكبر دليل على بطلان زعم الزاعمين بأن الحملة الفرنسيين صنعت المعجزات فى حياة مصر الحديثة .

وفى رأيى أن أدبنا الحديث لم يظهر إلا فى أواخر القرن التاسع عشر ، حيث قام الأدب الحديث فى النثر بريادة الإمام محمد عبده ، وفى الشعر بريادة محمود سامى البارودى زعيم المجددين ، إذ كان أول شاعر من ثمار العصر الحديث .

ويؤكد د . محمد مندور ذلك الذى أقوله ! ففى مقال له نشرته مجلة

---

(١) راجع ص ٣٤ من كتاب أخبار نجد والحجاز فى تاريخ الجبرتى — محمد غالب — ١٩٧٥ — طبع الرياض .

الهدف (عدد يوليو ١٩٥٦) رأى فيه أن الأدب الحديث ظهر بظهور الثورة العرابية فى مصر .

وفى مقال لطه حسين فى مجلة البشير الباكستانية يرى أن الأدب الحديث تحدد اتجاهه الجديد بعد ظهور حركة البارودى فى الشعر ، وحركة مصطفى كامل التحررية، وحركة الإمام محمد عبده فى الإصلاح الدينى ، ويقول : إن محمد عبده رد إلى العقل المصرى الحديث حريته فى التفكير .

ويذهب محمود تيمور (مجلة الرسالة عدد ١٩٦٤/٤/٢٣) إلى أن الأدب الحديث يبدأ من نصف القرن التاسع عشر .

وكان الأدب الحديث فى جملته أدباً عربياً بليغاً ، يعتمد على البلاغة الأدبية الموزونة وتتنوع صوره وأشكاله ومضامينه تنوعا كبيراً فمن مقامة إلى خطبة إلى فصول فنية ، إلى نقد ودراسات وتراجم أدبية .

— ٢ —

وكان لقيام المدارس والمجامع والكليات والصحف فى أنحاء العالم العربى أثر فى ظهور الأدب المعاصر فى أوائل القرن العشرين ، وذلك الأدب هو الذى شهد مولد « حديث عيسى بن هشام » للمويلحى وشهد مولد فن القصة برواية « زينب » لهيكل « وسارة » للعقاد ، وشهد مولد الأدب المسرحى ممثلا فى مسرحيات توفيق الحكيم الأولى ، وشهد مولد فن المقالة الأدبية والسياسية .

وحول محمد عبده وتلاميذه مجرى الأدب، فجعلوه فى خدمة الأمة ، يطالب

بحقوقها ، ويدافع عن حياتها ، وأخذ الأدب يتحدث عن الشعب وينشد الحرية ، ويفيض فى الحديث عن حقوق الإنسان .

لقد كان «حديث عيسى بن هشام» لمحمد المويلحى أثراً من آثار النهضة الفكرية التى غرسها الأفغانى ومحمد عبده فى عقول الأدباء ، والأفغانى هو الذى شجع سليمان البستانى على ترجمة الإلياذة لهوميروس فقال له كما يروى البستانى نفسه : إننا يسرنا أن نفعل اليوم ما كان يجب على العرب أن يفعلوه قبل ألف عام ونيف ، ويا حبذا لو أن الأدباء الذين جمعهم المأمون بادروا إلى نقل الإلياذة بادى ذى بدء ، ولو ألجأهم ذلك إلى إهمال نقل الفلسفة اليونانية برمتها .

وكان نشر كتب التراث القديم ، وفى مقدمتها : مقدمة ابن خلدون ؛ والأغانى ، والعقد الفريد ، ومقامات الحريرى ، ومقامات البديع ، ونهج البلاغة ، وسواها ، عملا أحدث أثره الكبير فى قرائح الأدباء والشعراء .

لقد أوقد الأفغانى فى مصر والشرق الإسلامى شعلة فكرية متوهجة . تنزع إلى الإحياء والنهضة والتجديد ، وآزره فى هذا المضمار تلميذه الامام محمد عبده .

وضاعف من توهج الشعلة ترجمة الكثير من الكتب الأدبية والثقافية والفكرية من لغات أوربا المختلفة إلى العربية ، مما أحدث أثره فى عقول الشباب العربى فى أوائل القرن العشرين .

— ٣ —

ولقد كانت كتابات محمد عبده وشكيب أرسلان ومحمود شكرى

الآلوسى وسواهم من أعلام الفكر مقدمة لحركة تجديدية واسعة النطاق فى الأدب .

وزاد من اتساع هذه الحركة عودة أعضاء البعثات التعليمية العربية التى كانت قد أرسلت إلى مختلف جامعات الغرب ، حيث قاموا بعد عودتهم بترجمة الكثير من روائع الأدب والفكر لتكون بين أيدى الشباب .

كل ذلك أدى إلى ظهور التيار الرومانسى فى الأدب الحديث ، وكان أول من دعا إليه حاملا راية التجديد والابتداع فيه الشاعر خليل مطران فى الشعر ومصطفى لطفى المنفلوطى فى النثر . وكان مطران يردد: أريد التجديد أكثر مما أردته فى كل آن . أريده ولا أكيفه ، أريد أن تكون لغتى شريكتى رؤية وسماعا وشعوراً ، تلقاء كل ما يجد ، وأن تتناوله، وأن تعيننى على الافصاح عنه .

وصبغ المنفلوطى النثر الحديث بصبغة رومانسية واضحة تتجلى فى آثاره المشهورة : النظرات — العبرات — ماجدولين — الفضيلة — الشاعر .

وجاء طه حسين ، فعزز نهضة الأدب ، والنثر العربى ، بجميع فنونه وموضوعاته .

وأيد هذه النهضة كتاب شاركوا فى كل حقل ثقافى وأدبى ، ومن بينهم : د — محمد حسين هيكل — عزيز أباظة — أحمد أمين — مصطفى صادق الرافعى — محمد كرد على — عباس محمود العقاد — زكى مبارك — أحمد حسن الزيات — مصطفى عبد الرازق — وسواهم .

— ٤ —

وإذا كان أدب القرنين السابع عشر والثامن عشر فى أوربا أدباً كلاسيكياً ، لأنه أدب إحياء وتقليد للاداب القديمة الإغريقية واللاتينية ، ولأنه أدب جودة الصياغة وفصاحة التعبير ، ولأنه أدب الخضوع للاصول والقواعد المرعية فى اللغة والأدب ، واستلهام التراث والآداب القديمة ، واتخاذها نماذج تحتذى، ولأنه أدب العقل الذى يضحى به الأديب بعاطفته فى سبيل الدقائق الذهنية والوثبات الفكرية .

فإن الأدب الذى حمل شعار تحطيم القيم الكلاسيكية والدعوة إلى الرجوع لحكم الذوق والعاطفة والإلهام والتجديد ، هو الأدب الرومانسى ، هذا الأدب الذى مجد الطبيعة ، وترنم بجمالها الحر البسيط ، وعاش فى أحضان الريف ، والذى عنى بالطابع الذاتى الوجدانى وما يتبعه من ألوان العواطف والشعور ، ومن ثم اتجه إلى الأدب الغنائى العاطفى ، الذى التزم البساطة فى كل شىء ، فى التفكير والتعبير ، فى التذوق والشعور ، وترك النفس على سجيتها ، وعانق الفطرة والطبع الخالص ..

وقد قامت الرومانسية فى انجلترا ، ثم فى ألمانيا وأسبانيا وإيطاليا ، والتيار الذى قامت عليه هو التيار العاطفى .

وفى ظـــــل الرومانسية نهض الشعر الغنائى ، لأنه شعر ذاتى لا موضوعى ، وتكونت الوحدة العضوية للقصيدة ، فأصبحت القصيدة ذات بنية حية تنمو من داخلها ، فى إتساق تام نحو نهايتها . . على ماذهب إليه جوته وسواه من الشعراء الغربيين .

وكان جوته وهو من رواد الرومانسية فى الغرب يقول : يجب أن يحذر

الشاعر النقل عن أى شاعر آخر ، لأنه يريد أن يكون تعبير الشاعر عن ذاته هو لا عن ذات غيره . . ويقول شاعر رومانسى آخر : معلمى هو الألم ولا شىء يسمو بنا إلى العظمة سواه . .

وبلغ الشعراء الفرنسيون الرومانسيون فى التعبير عن ذواتهم وعن فلسفة الألم التى تنطوى عليها جوانحهم كل مبلغ .

وازدهرت الرومانسية فى القرن التاسع عشر . وكانت بداياتها فى مصر ترجمات لأدب جوته ، وأناتول فرانس ، والفريد دى موسيه .

ولا ننسى تأثير ما جدولين والشاعر وهما من روايات المنفلوطى التى قام بترجمتها من الفرنسية، وكذلك رواية البؤساء التى ترجمها حافظ إبراهيم ، وآلام فرتر التى ترجمها الزيات ، وكلها من الأدب الرومانسى ، وقد أثرت تأثيراً عميقاً فى طبقات كثيرة من الأدباء .

وقد دعا شكرى إلى الرومانسية ، واتخذ شعاراً لها كتبه على غلاف الجزء الأول من ديوانه الذى صدر عام ١٩٠٩ ، وهو قوله :

ألا ياطائر الفردوس إن الشعر وجدان

وشعر على محمود طه وناجى وأبى شادى وصالح جودت ومحمود حسن إسماعيل والشابى والتيجانى بشير يعد نماذج رائعة للشعر الرومانسى .

ومن الدواوين التى حملت شعار الرومانسية : وراء الغمام لناجى ، والملاح التائه لعلى محمود طه ، والألحان الضائعة للصيرفى ، وأزهار الذكرى للسحرتى . . . والزورق الحالم لمختار الوكيل ، وهى كلها شعر يعبر عن ذات الشاعر ، ويستلهم الطبيعة والكون ، ويصور وجدان الشاعر الخاص عما فيه من آمال وآلام وأشواق روح .

مدارس الأدب الحديث فى مصر

— ١ —

كان الأدب الذى قام بعد الحركة العرابية والذى بشر به الإمام محمد عبده فى أواخر القرن التاسع عشر . وحمل راية الشعر فيه مجدداً ، وملحقاً له بالشعر العباسى وبلاغته ، شيخ الشعراء محمود سامى البارودى . . يصور مدرسة جديدة . فى الأدب العربى ، مدرسة ترجع إلى بلاغات الكتاب الفحول وتحتذيها . وتتحرر مما ساد الأدب من ضعف فى الأسلوب ، وسقم فى الخيال ، وهزال فى المعنى .

وخرج أعلام هذا الأدب من بيئات متعددة ، ومدارس أدبية مختلفة :

كبيئة الأزهر الأدبية ، التى نشأ فيها : المنفلوطى ، والبرقوقى ، وطه حسين ، والبشرى ، ومصطفى عبد الرازق ، وعلى عبد الرازق ، وزكى مبارك ، والزيات ، والشاعر الأسمر .

وبيئة دار العلوم ، التى خرج منها : عبد العزيز جاويش ، ومحمد الخضرى ، وعلى الجارم ، وسواهم .

ومن بيئة مدرسة القضاء الشرعى خرج : عبد الوهاب النجار ، وأحمد أمين ، وأمين الخولى .

ومن مدرسة المعلمين العليا خرج : عبد الرحمن شكرى ، وإبراهيم عبد القادر المازنى ، وأحمد زكى ، ومحمد فريد أبو حديد ، وسواهم .

ثم قامت الجامعة وخرج من صفوفها : الدكتور هيكل ، ومنصور فهمى ، وأحمد ضيف ، وعبد الحميد بدوى ، ثم توفيق الحكيم ، ومحمد

مندور ، ونجيب محفوظ ، وحسين فوزى ، ومصطفى السحرتى ، وشوقى ضيف . . وسواهم .

وكانت هناك مدرسة أدبية خرجت من بيئة الصحافة وفى مقدمتهم : العقاد . . ومن الصحف المشهورة : جريدة اللواء التى صدر العدد الأول منها فى أول يناير عام ١٩٠٠ م ، و « الجريدة » التى أصدرها أحمد لطفى السيد ، ومجلة البيان التى أصدرها عبد الرحمن البرقوقى عام ١٩١١ وتوقفت عن الصدور عام ١٩٢٣ م ، ومجلة الزهور التى كان يصدرها أنطون الجميل وسواها من الصحف والمجلات الأدبية .

وكان هناك جماعات من أعلام الأدب فى مصر تتلمذ عليها كثير من الطبقات ، وفى مقدمتهم : محمد عبـــده ، ومحمد وإبراهيم المويلحيان ، وجاويش ، وعلى يوسف ، وسيد المرصفى ، ومحمد المهدى ، ومحمد السباعى . والمنفلوطى .

وقد أثرت هذه الحركة الأدبية فى النثر ، فانتقل من الأسلوب القديم الذى كان يمثله عبد الله فكرى فى رسالته « السفر إلى المؤتمر » وتوفيق البكرى فى كتابة صهاريج اللؤلؤ ، ومحمد المويلحى فى كتابة « حديث عيسى ابن هشام » ، إلى أسلوب الإمام محمد عبده فى « رسالة التوحيد » ، والمنفلوطى صاحب الأسلوب الوجـــدانى الرومانسى فى نظراته وعبراته ، وطه حسين صاحب الأسلوب المتميز ، والرافعى فى رمزيته الأسلوبية المعروفة .

وأحدثت طبقة رجال الصحافة أثراً كبيراً فى تطـور أساليب النثر ، وفى مقدمتهم : عبد القادر حمزة ، وأحمد حافظ عوض . . وكان لمجلة المقتطف « ١٨٧٦ — ١٩٥٣ » ، والهلال « ١٨٩٢ — . . . » ، ثم الرسالة « ١٩٣٣ —

١٩٥٣ ، ومجلة أبولو التى أصدرها أبو شـادى ، ومجلة المصور لاسماعيل مظهر ، ومجلة الثقافة ، والسياسة الأسبوعية ، أثر كبير .

وفى عام ١٩٢٥ قامت فى الهلال والسياسة معارك حول القديم والجديد اشترك فيها : طه حسين ورفيق العظم ،وسواهم .

وقد نشأت المدرسة الجديدة فى الشعر والنثر بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة، كما ذهب إليه بعض الكتاب،أو عام ١٩٢١ كما أرجح بظهور الديوان.

وفى القصة تطـور الأسلوب من السجع إلى أسـلوب متحرر ظهر فى رواية « زينب » لهيـكل وفى قصص محمود تيمور ومحمد فريد أبو حديد ، وطاهر لاشين وإبراهيم المصرى وسواهم .

وكان إحياء التراث الأدبى القديم والأخذ من الآداب العالمية يسيران جنباً إلى جنب منذ مطالع القرن العشرين ، واتجه الشعر بعد البارودى فى بلاغته الـكلاسيكية إلى الجانب الاجتماعى الذى مثله حافظ وشوقى ومحرم ومطران. ثم إلى الجانب الوجدانى الذى مثله مطران وشـكرى والعقاد والمازنى.

— ٢ —

وكانت حركة الشعر الحديث تسير فى مدارس فنية متلاحقة أهمها :

١ ـــ مدرسة شعراء الديوان؛ العقاد وشـكرى والمـازنى ،التى بدأت فى الظهور منذ عام ١٩١٣ وأخذت تندد بمدرسة شوقى وحافظ ، وتدعو إلى التجديد على أوسع نطاق ، وتحتذى حركات التجديد فى الأدب الانجليزى وقد ظهر الجزء الأول من ديوان شـكرى عام ١٩٠٩ والجـزء الأول من ديوان المازنى عام ١٩١٣ ، والجز الأول من العقاد عام ١٦١٦ .

وأخرجت هذه المدرسة كتابا نقديا سمته » الديوان » نقدت فيه أعلام

المدرسة الكلاسيكية : كشوقى وحافظ والمنفلوطى ، ونادت بالرومانسية ، واستقت آراءها فى النقد من « هازلت » رائد المدرسة النقدية الانجليزية الحديثة . وكان ظهور الجزء الأول من الديوان عام ١٩٢١ م .

وشكرى عند بعض الكتاب هو بدء المدرسة الحديثة المعاصرة فى الشعر . ومهما كان فقد انفصل شكرى عن زملائه ، ولذلك نقده المازنى فى الجزء الأول من الديوان ، ثم أعلن المازنى عام ١٩٣٠ تنكره لآرائه التى أعلنها مع باقى أعضاء مدرسة الديوان ، وتوقف المازنى عن حركة الشعر نهائياً ، واتجه إلى القصة ، والمقالة ، ووقف العقاد وحده فى الميدان وبايعه طه حسين عام ١٩٣٤ بإمارة الشعر ثم عاد وتنكر لهذه المبايعة .

ويجعل فريق من النقاد ومنهم أبو شادى والسحرتى خليل مطران هو بدء الحركة الرومانسية الحديثة فى الشعر التى تمثلت فى ديوانه ، وقد ظهر الجزء الأول منه عام ١٩٠٨ ، ويعتد أبو شادى بمطران اعتداداً كبيراً ويتابعه فى ذلك مندور والسحرتى ومختار الوكيل فى كتابه «رواد الشعر الحديث» .

وقد ظهر أول ديوان لأبى شادى ممثلا لاتجاهات أستاذه مطران الشعرية عام ١٩١٢ وهو ديوان « أنداء الفجر » .

وممن يعتدون بشكرى رمزى مفتاح فى « رسائل النقد » ، وأنور الجندى فى كتابه « نزعات التجديد فى الأدب العربى المعاصر » .. وكنت فى كتبى : «رائد الشعر الحديث» والأدب العربى الحديث ومدارسه ، و«قصة الأدب المعاصر» ممن يعتد بمطران للسبق الزمنى أولا، وللحجج التى ذكرها أبو شادى فى أستاذية مطران للمدرسة الشعرية الحديثة . . والحقيقة أن الأمر يحتاج إلى إيضاح ، فمطران هو رائد الحركة الرومانسية فى الشعر الحديث ، من حيث كان شكرى هو أستاذ المدرسة الحديثة فى الشعر ، ثم تلاه

العقاد ... ولذلك لا نجد عند مطران غير الدعوة إلى الرومانسية بأصولها ومقوماتها الفنية ، بينما نجد الحركة الشعرية عند شكرى أوسع نطاقا، وأبعد مدى ، ويجعله رمزى مفتاح زعيم الشعراء المجددين أو زعيم مدرسة الجديد وأنه رأس المدرسة الحديثة .

ويصور خليل مطران رأيه فى التجديد فيقول :

أريد التجديد يتمثل فى التفكير بمعناه البعيد الغور ، الذى هو منبع الابتكار ، ليحل ذلك التفكير تدريجياً محل الخيال المشتت ، الذاهب فى تشتيت الذهن ضروب المذاهب ، الخيال الذى يصدر عن الحقيقة غالباً التى هى مصدر كل جمال ثابت .

ويقول مطران فى وصف شعره فى تصديره لديوانه « ديوان الخليل » :

هذا شعر عصرى وفخره أنه عصرى ، وله على سابق الشعر مزية زمانه على سالف الدهر ، هذا شعر ليس ناظمه بعبده ، ولا تحمله ضرورات الوزن أو القافية على غير قصده ، يقال فيه المعنى الصحيح باللفظ الصحيح ، وينظر فيه إلى جمال البيت ذاته وفى موضعه ، وإلى جمله القصيرة فى تركيبها وفى ترتيبها وفى تناسق معانيها وتوافقها ، مع ندور التصور ، وغرابة الموضوع ، ومطابقة كل ذلك للحقيقة ، وشفوفه عن الشعر الحر ، وتحرى دقه الوصف واستيفائه فيه على قدر .

ومن الجدير بالذكر أن مطران كان يرجع إلى مدرسة الشعراء الرومانسيين الفرنسيين ، بينما كان يرجع العقاد وزملائه إلى المدرسة الإنجليزية وإلى أخيلة الشعراء الانجليز ومعانيهم ، وشعر الرومانسيين منهم عامة .

والشعر عند مدرسة الديوان تغلب عليه النزعة الوجدانية الذاتية ، بينما تغلب على مدرسة مطران النزعة الموضوعية .

والشعر عند شكرى هو وصف الحالات النفسية ، والمواقف العاطفية والأحاسيس المختلفة ، وكل مايتفاعل به العقل المفكر مع الشعور الحى المثقف : وقصائده صورة كاملة لرسم النفس وحالاتها ، والإلهام الشعرى عند شكرى هو استكمال المعنى فى ذهن الشاعر ونضوجه فى نفسه ، واستيفاء الاحساس به .

وينادى أصحاب مدرسة الديوان بأن الشعر يجب أن يكون تعبيراً عن وجدان الشاعر وحياته الباطنية ، أى أن يكون صورة لنفسه ، وصادراً عن وجدان الشاعر وطبعه ، وهذه المدرسة تدعو إلى صدق الشاعر فى الاحساس والتعبير ، ولذلك قال شكرى : « إنما الشعر وجدان » .

والعقاد لايعترف بشاعر لا تطالعنا شخصيته ومزاجه الخاص ونظرته إلى الحياة من خلال شعره ، أو لاتتكامل وحدة القصيدة فى شعره . . ومن ثم هاجم شوقى فى كتاب « الديوان » هجوما شديداً .

وقد مات المازنى فى أغسطس عام ١٩٤٩ ، ومات مطران فى نفس العام ، ثم مات شكرى عام ١٩٥٩ ، والعقاد عام ١٩٦٤ .

وقد شهد الثلث الأول من القرن العشرين معارك دامية بين المحافظين والمجددين فى الشعر والأدب ، وبين أنصار القديم والجديد فى النقد والمذاهب الشعرية .

٢ — مدرسة أبولو الشعرية وقد قامت عام ١٩٣٢ ، وأنشأها أحمد زكى أبو شادى ، ووقف معه شوقى ومحرم ومطران ، وأيده إبراهيم ناجى

والسحرتى ومختار الوكيل وحسن كامل الصيرفى وجماعات من أدباء الشيوخ والشباب . واتجهت هذه المدرسة إلى الرومانسية ، وأثرت تأثيراً كبيراً فى الحركة الشعرية فى العالم العربى فسار وراءها أبو القاسم الشابى فى تونس ، والتيجانى بشير فى السودان ، وسواهما . . وبتأثيرها ظهرت الكلاسيكية الجديدة بعد وفاة شوقى ممثلة فى شعر : عزيز أباظة ومحمود أبوالوفا ومحمود غنيم ومحمد عبد الغنى حسن ومحمد الاسمر ، وعلى الجندى وغيرهم . .

وأبو شادى يرجع إلى مطران فى الشعر والنقد ، وقد نظم الشعر القصصى والتمثيلى ولقح شعره بأخيلة ومعانى الشعراء الإنجليز ، ودعا إلى التجديد فى أوسع نطاق ، وشجع الشعر المرسل والحر وأنشأ مدرسة أبولو الشعرية ومجلتها كذلك .

ويبسط أبو شادى شعوره العميق بأستاذية مطران له فى الشعر فى ديوانه « أنداء الفجر » فيقول :

« ليس ما بلغناه من الحركة التحريرية للنظم ، ولا ما نتناوله من الموضوعات الإنسانية ، إلا الرقى الطبيعى لحركة الشعر عند مطران ، وأول تعاليم مطران ترك النفس على سجيتها وترك التصنع » .

ويقول أبو شادى : إن الشخصية الفنية الحرة هى اهم ما يؤكده مطران ، وهى ما تعودت أن أهتم به فى ذاتى ومن غيرى ، وهذه الشخصية الحرة هى روح شعرى ، وقد عشت تلميذاً على الطبيعة وعلى الثقافة الإنسانية .

ويقول كذلك فى « أنداء الفجر » : إن مذهبى فى الشعر يمثل الاطراد الطبيعى للتعاليم الفنية التى تشربتها نفسى الصبية من مطران .

وقد زاد أبو شادى على أستاذه تطور لغته وأخيلته وتعابيره ومثله العليا وتجاربه الباطنية .

وغاية الشعر عند أبى شادى هى أداء وظيفة الشعر بالشعر للشعر وأسمى غاية عنده للشعر هى النهوض بالإنسانية عن طريق هذا الفن الجميل . ويرى أبو شادى أن الطلاقة الفنية هى صفة فطرية فى كل فنان موهوب ، وهذه « الطلاقة الفنية » كان يطلق عليها العقاد اسم « الطبيعة الفنية » .

وكان أبو شادى من أشد الشعراء تحمساً وفهماً للتجديد ودعوة إليه ، وحرصاً عليه ، وقد قرأ الآداب العالمية ، ووقف على الفكر الإنسانى فى مختلف مراحله ، وظهر فيه التأثير الغربى ، وله ثلاث وعشرون ديواناً وعشر قصص وتمثيليات وأربعة دواوين لاتزال مخطوطة لم تطبع بعد . وهى نشيدى ، إيزيس ، الإنسان الجديد ، أغانى الإنسان .

وفى صدر العدد الأول من مجلة أبولو الذى ظهر فى سبتمبر عام ١٩٣٢ رسم أبو شادى أهداف مدرسة أبولو الشعرية فيما يلى :

١ ـــ السمو بالشعر العربى وتوجيه جهود الشعراء توجيهاً شريفاً .

٢ ـــ مناصرة النهضات الفنية فى عالم الشعر .

٣ ـــ ترقية مستوى الشعر أدبياً واجتماعياً ومادياً والدفاع عن كرامتهم

ويقسم أبو شادى المدارس الشعرية المعاصرة فى العالم العربى إلى ثلاث مدارس شعرية :

١ ـــ المدرسة الكلاسيكية المجددة تحت الراية الابتداعية وهى التى كان يتزعمها مطران . . ومن أعلامها :

الأخطل الصغير « بشارة الخورى » ، بدوى الجبل ، الشاعر القروى ، شفيق المعلوف إيليا أبو ماضى ، ميخائيل نعيمة والزهاوى والرصافى ، وأبو ريشة وعبد الرحمن شكرى ، إبراهيم ناجى ، وسواهم .

٢ — المدرسة التجديدية المتطرفة ، ومنها : نزار ونازك والسياب .

٣ — المدرسة الوسط ، التى تحتفل أشد ما تحفل بالموسيقى الاتباعية ، وبجزالة الألفاظ ، وبالصيغ العربية المأثورة ، وبالإشراق الغامر ، ويمثلها ، عزيز أباظة ، ومن قبله كان على محمود طه .

— ٣ —

وأستطيع أن أقسم الشعراء المحدثين إلى المدارس الآتية :

١ — مدرسة الكلاسيكيين القدماء والجدد، ومنهم البارودى وحافظ وشوقى ومحرم وعزيز أباظه والجندى وغنيم والأسمر ومحمود أبو الوفا ومحمد عبد الغنى حسن وسواهم .

٢ — المدرسة الرومانسية ، ومن أعلامها : مطران وشكرى والمازنى والعقاد وأبو شادى وناجى وسواهم .

٣ — المدرسة الواقعية ، وشعراؤها هم شعراء الشباب اليوم .

وبعد فقد أثرت مدارس الشعر فى مصر جميع الشعراء العرب فى أنحاء العالم العربى ، وأحدثت ولا تزال تحدث آثارها فى الحركة الشعرية منذ بدء ميلاد الأدب الحديث فى مصر والعالم حتى اليوم .

الشعر العربى الحديث

بين الماضى والحاضر

ظهرت شخصية مصر خلال مقاومتها للغزو الفرنسى ، فرأينا أبطال المقاومة وزعماء النضال يقودون الشعب ، ورأينا الأزهر وعلماءه ، يتصدرون ميدان الكفاح ، ومن بينهم : عمر مكرم ، ومحمد السادات ، وعبد الله الشرقاوى (١٢٢٧ هـ : ١٨١٢ م) ، ومحمد الحفنى المهدى (١٢٣٠ هـ : ١٨١٥ م) ، والشيخ الأمير (١٢١٢ هـ : ١٨١٧ م) ، والشيخ الشنوانى (١٢٣٣ هـ : ١٨١٧ م) ، وسواهم .

ونبغ من الشعراء فى عهد محمد على : السيد إسماعيل الخشاب (١٢٣٠ هـ : ١٨١٥ م) ، والشيخ حسن العطار (١٢٥٠ هـ : ١٨٣٤ م) ، والسيد على الدرويش (١٢٧٠ هـ : ١٨٥٣ م) .. وشعرهم امتداد للشعر العصر العثمانى بكل خصائصه من الألفاظ ،والصنعة البديعية ، وصناعة التاريخ الشعرى ، والإكثار من البديعيات ، وغير ذلك .

وفى عصر إسماعيل بدأ الشعر يسير فى طريق التطور ، ووجدنا من الشعراء : صفوت الساعاتى ، (١٢٩٨ هـ : ١٨٨٠ م) ، والسيد على أبو النصر (١٢٩٨ هـ : ١٩٨٨٠ م) ، والشيخ على الليثى (١٣١٣هـ:١٨٩٦) وعبد الله فكرى (١٨٨٩ م) ، وعبد الله نديم (- ١٨٩٦ م) ، ومحمد عثمان جلال (— ١٨٩٨ م) .

ثم أخذت طلائع النهضة الشعرية تطلع منذ الثورة العرابية ، ومن الأدباء من يعتبر الساعاتى طليعة هذه النهضة الحديثة ، وخاتمة الأدباء ،

الناشئين على الطريقة التقليدية ، وهو يحق حلقـــة الاتصال بين الشعراء العروضيين والشعراء المحدثين [١] .

وتقدم الشعر ، فظهر البارودى رائد الشــعر الحديث (— ١٩٠٤) ، وإسماعيل صبرى (— ١٩٢٣ م) وعائشة التيمورية (١٩٠٢) ، وأحمد نسيم ، وأحمد الـكاشف ، وحفنى ناصف (١٩١٩) ، ومحمد عبد المطلب (١٩٣١) ، وتوفيق البكرى (— ١٩٣٢) والرافعى (— ١٩٣٧ ، وأحمد محرم (— ١٩٤٥) ، ومطران (— ١٩٤٩) ، وظهر معهم شوقى وحافظ وأعلام آخرون .

ويمكن أن نعتبر طلائع النهضة الشعرية تمتد منذ الحملة الفرنسية إلى بدايات الثورة العرابية (١٧٩٨ — ١٨٨٠ م) ، ويلى ذلك عصر البعث والإحياء ، ويبدأ ببدايات الثورة العرابية إلى ثورة ١٩١٩ (١٨٨٠ — ١٩١٩) ، ثم يلى ذلك عصر التجديد الشعرى ويبدأ ببداية الثورة المصرية عام ١٩١٩ إلى ثورة ١٩٥٢ ؛ وبعد ذلك تجىء مرحلة أخرى من مراحل التطور . . ليس مجال الحكم عليها الآن ...

---

(١) ٥ — ٨ شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى للعقاد — ط ١٩٣٧ - مطبعة حجازى القاهرة .

حركات التجديد فى الشعر العربى الحديث

— ١ —

الشعر العربى الحديث الذى نقرؤه ونتذوقه؛ ونحفظ روائعه التى أبدعها الشعراء العرب فى كل مكان من مختلف بلاد العروبة ؛ مدين لمحمود سامى البارودى رائد شعراء النهضة الحديثة بدين كبير .

فمن حيث كان الشعراء العرب ينظمون الشعر متأثرين بنماذجه فى العصر العثمانى ، الذى ضعفت فيه البلاغة العربية ، واضطربت فيه الأذواق الأدبية، وفسدت فيه الملكات، وغلب فيه على الشعر الركاكة، والابتذال والمحسنات البديعية اللفظية التى لا يتطلبها المعنى ؛ ولا يستدعيها المقام ، ولا يستفيد منها القارىء شيئاً ؛ وشاع فيه نظم الشعر فى تافه الأغراض .

رأينا الشاعر محمود سامى البارودى يظهر فى سماء الشعر العربى ، نجما لامعاً ، وكوكباً ساطعاً ، ليجدد للشعر شبابه ويحيى له دارس عروبته . وقد كان البارودى منذ حداثته يميل إلى الأدب، ويتذوق روائع الشعر، ويستمع إلى ما يلقى فى أندية الأدب ومجالسه من منثور ومنظوم . ثم صار يقرأ على الأدباء والشعراء النماذج المختارة، ويشاطرهم فقه ما يقرأ . ثم استقل وحده بقراءة الدواوين الشعرية لأعلام الشعر القديم ، وبخاصة الشعراء الجاهليون والإسلاميون والمحدثون . حتى وصل فى قليل من الزمن إلى ما لا يدرك فى متطاول الأزمان . فنظم الشعر وهو دون العشرين ، وصار يحذو فيــه حذو الجاهليين والإسلاميين والمحدثين ، فلا يقصر عنهم ، ولا يقع دونهم . .

وإن تعجب فعجب أن البارودى لم يدرس فى مطلع حياته قواعد العروض والقافية ، ولا قرأ النحو ولا الصرف ولا معاجم اللغة . . . وإنما اتخذ الأدب هوايته ، والشعر حرفته ، تذوقاً وطبعاً ، لا أثر للصناعة فى شئ من ذلك كله ؛ ووصل إلى ما وصل إليه عن طريق محا كاته لبلاغات القدماء ، حتى لا تجد له لفظاً نابياً ، ولا أسلوباً ضعيفاً . . وكأنما هو من الأعراب الناشئين فى البلاغة والأدب . . فطرة سليمة ، ونفس صافية وذوق رفيع ، وإلهام صادق .

وإذا كان شعره فى مطلع شبابه يمثل طموحه الأدبى ، وأمله فى الوقوف بجانب فحول الشعراء ، فإن شعره فى أيام محنته واغترابه يمثل شاعراً رصيناً يحاكى فحول الشعراء فى القرن الثالث والقرن الرابع من أمثال أبى تمام والبحترى وابن الرومى والمتنبى والشريف الرضى ، وغيرهم . جزالة لفظ ، وفحولة نظم ، ورصانة قافية ، وإشراق ديباجة ، وصفاء عبارة ، وجمال أسلوب ، حتى يمكن أن يقال إنه منذ مئات السنين لم يجئ من الشعراء من يفوق البارودى فى ذلك أو يدانيه . .

ولقد كان رائد حركة البعث الأدبى فى مصر فى النثر هو الإمام الشيخ محمد عبده . . الذى رعى الأدب والأدباء ، ووجه الشعر والشعراء ، توجيهاً رائعا جديداً . . وكانت صلته بالبارودى وثيقة .

وعن البارودى يقول أستاذه الشيخ المرصفى صاحب كتاب « الوسيلة الأدبية » : أولع البارودى وهو غض الحداثة بحفظ الشعر ، وأخذ نفسه بدراسة دواوين الفحول من الشعراء المتقدمين ، حتى شب فصيح اللسان ، مطبوعا على البيان ، دون أن يتعلم النحو ، فانطلق يقول الشعر فى أغراضه المختلفة « ونهض به نهضة عظيمة ، فأعاد إليه حلته العربية ، حتى شاكل

شعر الشريف الرضى والمتنبى فى جزالة اللفظ ، ومتانة النسج ، وقوة الأسلوب ، وروعة الديباجة ، ولم يتخلف عن متقدمى الشعراء فى شىء ، على أنه ربما أربى عليهم بما جال به فى فنون المعانى، التى تجلت بها الحضارة الجديدة ، وما وصف من مخترعات كشف عنها العلم الحديث .

وقد دارت أخيلة البارودى ومعانيه بين توليداته العجيبة فى معانى هؤلاء السابقين وأخيلتهم ، وبين ما أثارته أحاسيسه العربية الخاصة ،وهى بين مولدة ومخترعة — آية القدرة ، وثراء الفن ، ومظهر العبقرية، مما انقطع عنه أو عما دونه بكثير طموح شعراء عصره .

والبارودى أول شعراء النهضة الحديثة ، وهو الذى رد الديباجة الشعرية إلى بهائها وصفائها القديمين .

ولقد وضع البارودى فى القوالب المأثورة تفكير عصره ، والمثل العليا لمعاصريه .

وكان يعاصره فى العراق : عبد الغفار الأخرس ، ومحمد سعد الحبوبى النجفى ، وحيدر الحلى ، وعبد الحميد الشاوى ، وكان أشهرهم الحبوبى ، الذى اشتهر بموشحاته الغنائية ، وبشعره الوجدانى ، كما اشتهر الشاوى بوطنياته .

وفى السعودية كان من معاصريه : ابن عثيمين ، وأحمد إبراهيم الغزاوى ، ومحمد سرور الصبان .

وفى المغرب نجد : محمد المختار السوسى ، وعلال الفاسى ، والمكى الناصرى ، ومحمد بن إبراهيم ، وعبد الرحمن حجى حمد العثمانى ، وسواهم .

وفى تونس نجد : أمثال السويسى وحسين الجزيرى ومحمد الشاذلى خزانة دار ، وسعيد أبو بكر ، وسواهم .

ولكن البارودى من بين هؤلاء جميعاً كان أكثر تأثيراً فى نهضة الشعر العربى ، وأكبر تجديداً له من كل معاصريه .

وكان الموجه للشعراء وللشعر فى العراق هو محمود شكرى الألوسى صاحب كتاب « بلوغ الأرب فى أحوال العرب » .

— ٢ —

وقد ورث البارودى فى مصر شاعران كبيران هما : أمير الشعراء أحمد شوقى ، وشاعر النيل حافظ إبراهيم ، وبجوارهما أعلام من الشعراء من أمثال : إسماعيل صبرى ، وعبد الرحمن شكرى ، وعباس محمود العقاد ، وعبد القادر المازنى ، والشاعر أحمد محرم ، وغيرهم ، ممن تابعوا خطا البارودى ، وساروا فى ميدانه ، وجالوا فى حلبته ، مجددين للشعر ، رافعين أعلام البلاغة العربية والذوق الأدبى الرفيع ، يوثقون صلته بالعصر والحضارة ونهضة العلوم والآداب والفنون .

وتأثر بالبارودى شعراء العراق أمثال الزهاوى والرصافى ومحمد رضا الشبيبى والصافى النجفى . . كما تأثر به فى الشام والحجاز : فؤاد الخطيب وشكيب أرسلان وخليل مردم وبشارة الخورى وفخرى البارودى وغيرهم من الشعراء .

وفى العراق : محمد على اليعقوبى ، وحافظ جميل ، ومحمد بهجة الأثرى ، والجواهرى ، والسيد بحر العلوم ، ومحمود الحبوبى .

وهذه الطبقات من الشعراء أثروا الشعر العربى وجعلوه تعبيراً صادقاً عن كل مايتعلق بالمجتمع العربى فى مختلف شئونه وآلامه وآماله ، وكما يقول أمير الشعراء أحمد شوقى :

كان شعرى الغناء فى فرح الشر ق ، وكان البكاء فى أحزانه

— ٣ —

ثم ظهر خلفاً لهؤلاء الشعراء جميعاً مدارس المجـــددين فى الشعر العربى الحديث .

فظهر التيار الرومانسى فى الشعر الذى كان أول من دعا إليه حاملا راية التجديد والابتداع فيه خليل مطران ، الذى دعا إلى الحرية الفنية التى تحترم شخصية الشاعر واستقلال الفن عن الصنعة والأناقة الزخرفية ، ودعم وحدة القصيدة ، وأبرز كل شىء فى الوجود صغيراً أو كبيرا كموضوع شعرى خليق بعناية الشاعر ، وطرق الموضوعات الإنسانية . وعززت دعوته فى التجديد مدارس ثلاث:

أولاها : مدرسة شعراء الديوان .. العقاد وشكرى والمازنى ، وقد دعا ثلاثتهم إلى شعر الوجدان ، وأكدوا وحدة القصيدة ، واحتفوا بالأخيلة والصور الجديدة والمضمون الشعرى ، وكان شعارهم بيت شكرى المشهور

ألا يا طائر الفردوس إن الشعر وجدان

وثانيتها : مدرسة شعراء أبوللو . . . أحمد زكى أبو شادى، وعلى محمود طه ، وإبراهيم ناجى ؛ وصالح جودت ؛ و د . عبد العزيز عتيق؛ ومصطفى

عبد اللطيف السحرتى وحسن كامل الصيرفى و د . محمد عبد المنعم خفاجى و د . مختار الوكيل . . . وسواهم .

وثالثها : مدرسة شعراء المهجر ، من أعلام شعراء الرابطة القلمية ؛ وفى مقدمتهم : جبران ، وإيليا أبو ماضى ، وميخائيل نعيمة . . وأعلام شعراء العصبة الأندلسية ، وفى مقدمتهم شفيق معلوف والشاعر القروى وإلياس فرحات . . وسواهم .

ومنذ ثلث قرن ظهر دعاة الشعر الحر ، الذين لم يحدثوا شيئا ذا بال حتى اليوم فى الشعر العربى .

وقد تزعم هذه الحركة : نازك الملائكة ، وبدر شاكر السياب ، وغيرهما ممن زعموا أن الإطار الموروث للقصيدة العربية لا يستطيع استيعاب صور الواقع الحقيقى لحياة العصر وما يتركه هذا الواقع من أثر كبير فى نفس الشاعر .

هذا هو مجمل حركات التجديد فى الشعر العربى الحديث منذ البارودى حتى اليوم ، ولا شك أن الشعر قادر على السير بخطوات كبيرة وجديدة فى متابعة الحضارة والفكر والإنسان .

مدرســـة البعث والاحيـــاء

البارودى الرائد الأول لمدرسة البعث

— ١ —

عاش محمود سامى البارودى (٣٧ من رجب ١٢٥٥ — ٤ من شوال ١٣٢٢ هـ : ١٨٣٨ — أواخر ديسمبر ١٩٠٤ م) حياته بصول فى الحرب ، ويغنى للحب ، ويهتف بالحرية .. وكما كان بطلا من أبطال الجيش ، ورائداً من رواد الشعر ، كان كذلك حادياً يحدو مواكب الثورة على الفساد والاستبداد والخيانة والتدخل الأجنبى فى شئون وطنه الخارجية والداخلية .

وقد عاش البارودى قبل الثورة العرابية أكثر من أربعين عاما قضاها فى طموح وعمل وبناء ، ووصف للحرب ، وغناء للحب ، وفخر بالحسب والنسب ، وبمصر وحضارتها ونيلها وآثارها .. ثم وقعت الثورة فعاش أيامها مكافحاً مناضلا من أجل وطنه وشعبه . . وهزم الثوار الأحرار ونفى البارودى مع من نفى من قادتهـا إلى جـزيرة سرنديب (سيلان) ، وفى المنفى عاش البارودى الشـاعر سـبعة عشر عاما (١٨٨٣ — ١٩٠٠) ، قضى منها فى كولومبو سبعة أعوام ، وفى كندى عشرة أعوام ، وظل ينظم شعره فى منفاه فى الحكمة والزهد والحنين إلى الوطن والأهـل ، ورثاء من مات فى أسرته ، واحداً إثر واحد . ونظمه كذلك فى قص ذكرياته الماضيات ، وفى الحديث عن موقفه الوطنى من الأحداث فى وطنه قبل الثورة وبعدها وأثناءها .

أما شعر البارودى فى الحب فهو شعر تقليدى مصنوع ، لاينم عن تجربة شعورية عميقة ، وليس له قيمة فنية كبيرة ، ولا يدخل فى باب الهوى العذرى أو القصصى ، وأغلب الظن أنه كتبه مجاراة لأعلام الشعراء فى عصره : من مثل عبدالله فكرى ، ومحمود صفوت الساعاتى ، وعبدالله نديم ، وسواهم .

ومع ذلك فهو كثير فى ديوانه . وفيه يتحدث البارودى عن ألم الحب وعذابه ولوعته وحرمانه ، ويناجى غادة الروضة (حيث كان سكناه فى مقياس الروضة) ، كما ناجى من بعد غادة حلوان (حين انتقل سكناه إليها) فيقول :

لم أدر هل شعر الزمان بلوعتى فرثى لها أم هاجت الدنيا معى
أبكى فيرحمنى الجماد ولا أرى خلا يرق إلى شكاتى أو يعى
قد طالما ياقلب قلت لك احترس أرأيت كيف يجيب من لم يسمع
ياظبية المقياس هذا مدمعى فردى ، وهذا روض قلبى فارتعى

وهنا نجد الصفة التى لازمت شعره فى طوره الأول ، طور التقليد والاحتذاء والمعارضة والصنعة بقيودها الفنية عديلة للتجربة الشعرية المتحررة العميقة المعبرة عن ذات الشاعر ومشاعره الدفينة .

ويتألم البارودى من نار الهوى التى يكوى بلفحها ، والتى تكاد تحرق أضلعه لولا دموعه الغزيرة ، فيقول :

ويلاه من نار الهوى إنها لولا دموعى أحرقت أضلعى

ويتعجب كذلك لقلبه الذى ليس تهدأ لوعاته فيقول :

ما لقلبى من لوعة ليس تهدا أو لم يكف أنه ذاب وجدا ؟
وسمتنى بنارها الغيد حتى تركتنى فى عالم الحب فردا

ويستطيب الشاعر أحاديث الشوق ، لأنها تطفىء لوعته ، فيقول :

فيا سعد حدثنى بأخبار من مضى
فأنت خبير بالأحاديث يا سعد

وهو كأنه مأخوذ من قول ابن المعتز :

وحدثتنى ياسعد عنهم فزدتنى جنونا فزدنى من حديثك ياسعد

ثم يسترسل البارودى فى شعره فيقول :

لعل حديث الشوق يطفىء لوعة
من الوجد أو يقضى بصاحبه الفقد
هو النار فى الاحشاء لكن لوقعها
على كبدى مما ألذ به برد
وما كنت لولا الحب أخضع للتى
تسىء ، ولكن الفتى للهوى عبد

ويقف البارودى أمام الحب ، وجهاً لوجه ، فيراه شيئاً كبيراً ، حيث يقول :

لكل شىء وإن تمادى حد وما للغرام حد
فليس قبل الغرام قبل وليس بعد الغرام بعد

وهكذا مضى البارودى يتحدث فى شعره عن الحب والمرأة والجمال ، وهو فى عصر شبابه وحريته وانطلاقه، حتى كانت الأحداث التى أحاطت ببلاده من كل جانب ، وهو الوطنى الصادق فى وطنيته والمصرى الصميم فى مصريته، والممتلىء القلب والجوانح والمشاعر بحب مصر ومجدها وتاريخها وحضارتها ونيلها وآثارها وأهلها وأرضها ، وإن كان ينحدر من أصل

تركى أو شركسى ، وإن كان يعيش قريباً من الخديويين مستظلا بظلهم ، وبخاصة اسماعيل الذى ضمه إلى حاشيته ، ثم اختاره فى حرسه ، ثم أنعم عليه بالرتب وبالمناصب الكبيرة ، وشاهد الشاعر آثار الفساد السياسى والاقطاع والنفوذ التركى والشركسى فى الادارة والجيش ، وآثار التدخل الأجنبى فى حكم مصر ، فانقلب ثائراً متحمسا لكل قضايا وطنه ، يفتديه بروحه ومهجته .. وصور مختلف مظاهر ثورته فى شعره ، فكان شعره فى الحرية، وهو شعر أصيل عميق فى نفس الشاعر ، يرفع من مكانته ، ويجعلنا نؤمن بأن البارودى من أجله يستحق أن يكون الشاعر القومى والوطنى الأول فى عصرنا الحديث ، منذ بدء النهضة حتى اليوم .

نادى البارودى بوجوب الثورة على الظلم والفساد ، فقال :

إذا المرء لم يدفع يد الجور إن سطت
عليه فلا يأنف إذا ضاع مجده

ويقتل داء رؤية العين ظالما
يسىء ويتلى فى المحافل حمده

عفاء على الدنيا إذا المرء لم يعش
بها بطلا يحمى الحقيقة شده

ورأى أن الذل والرضا بالظلم ، والركون إلى الآمال الكاذبة ، عار على الإنسان الماجد النبيل ، فقال :

من العار أن يرضى الدنية ماجد ويقبل مكلوم المنى وهو مسافر

بل لقد أخذ يدعو الشعب إلى الثورة على جلاديه فيقول :

فياقوم هبوا إنما العمر فرصة وفى الدهر طرق جمة ومنافع

أصبرا على مس الهوان وأنتمو عديد الحصا إنى إلى الله راجع
وكيف ترون الذل عيشة قانع وذلك فضل الله فى الأرض واسع

ودعا الشعب إلى أن يهب للمطالبة بحقوقه فى الحرية والكرامة والعدالة فقال :

فطالبوا بحقوق أصبحت غرضا لكل منتزع سهما ومختتل
لاتتركوا الجد أو يبدو اليقين لكم فالجد مفتاح باب المطلب العضل
حتى تعود سماء الأمن ضاحية ويرفل العدل فى ضاح من الحلل
قد أصبح الناس فى عمياء مظلمة لم يخط فيها امرؤ إلا على زلل
لم أدر ماحل بالأبطال من خور بعد المراس وبالأسياف من فلل
أصوحت شجرات المجد أم نضبت غدر الحمية حتى ليس من رجل

ويسترسل البارودى فى الحديث عن جلادى الشعب فيقول :

ذلت بهم مصر بعد العز واضطربت قواعد الملك حتى ظل فى خلل

ويكرر ذلك أيضاً ، وهو يعلل النفس بالصبر والأمل ، فيقول :

تنكرت مصر بعد العرف واضطربت
قواعد الملك حتى ريع طائره
يانفس لاتجزعى فالخير منتظر
وصاحب الصبر لاتبلى مرائره

وعاش البارودى فى قلق ،حيث الظلم والظلام يعمان أرض مصر وسماءها، وحيث يرى الشاعر أن لاعلاج لذلك إلا الثورة ، بيضاء أو حمراء ، لأنها هى التى ستقتلع أسس الفساد والاستعباد من أرض مصر :

تالله أهدأ أو تقوم قيامة فيها الدماء على الدماء تراق
أنا لاأقر على القبيح مهابة إن القرار على القبيح نفاق

والقبيح هنا هو ما كان يجرى على مسرح الأحداث فى مصر آنذاك ، من ظلم صارخ ، واضطهاد للحريات ، وانتهاك للحرمات ، ونهب لأموال الشعب ، وتدخل أجنبى سافر بغيض .

لم يسكت البارودى ، لأنه كان يرى أن السكوت على الباطل جبن ونفاق ، وأن الرضا بالظلم ذلة ورياء ، وأن عـدم الانتصار للحق عار وهوان ، يقول :

فلا رحم الله امرأ باع دينه بدنيا سـواه وهو للحق وامق
فإن نافق الأقوام فى الدين خسة فإنى بحمد الله غير منافق
على أننى لم آل نصحا لمعشر أبى غدرهم أن يقبلوا قول صادق
ولكننى ناديت بالعدل طالبـا رضا الله واستنهضت أهل الحقائق
أمرت بمعروف وأنكرت منكرا وذلك حكم فى رقاب الخـلائق
وكيف يكون المـرء حرا مهذبا ويرضى بما يأتى به كل فاسق

وخاطب البارودى الظالمين من حكام مصر وجلاديه فى عصره فقال :

يا أيها الظـالم فى ملكه أغـرك الملك الذى ينفـد
اصنع بنا ماشئت من قسوة فالله عدل والتـلاقى غـد

وعلل الشـاعر قسـوة الحاكمين على الشعب بسكوته عن ظلمهم واستبدادهم ، فقال :

وكذلك السلطان إن ظن بالأمـ ـة عجزا سطا عليها وشـدا

وتفاقمت الأمور ، فأخذ يتنبأ بالثورة التى يراها بعين بصيرته ، فقال :

إنى أرى أنفسا ضاقت بما حملت وسوف يشهد حد السيف شاهره

بل لقد حدد موعد الثورة تحديدا دقيقا ، بعد أن رأى تفاقم الاحداث، وغليان النفوس بالثورة ، فقال إثر ذلك البيت :

شهران أو بعض شهران هي احتدمت   وفى الجديدين ما تغنى نواقره
لعل باجة نور يستضاء بها   بعد الظلام الذى عمت دياجره

ووقعت الواقعة ، وقامت الثورة العرابية بالتحام الشعب والجيش ، واشترك البارودى فيها : جنديا ثائرا ، وقائدا مسئولا ، وكانت خيانة الخديوى وحاشيته وأعوانه ، ودخل الانجليز أرض الوطن محتلين ، ونفى البارودى إلى سيلان . .

وفى المنفى نظم أجمل أشعاره ، وأكثرها أصالة وابداعا وطلاقة ، وتعبيرا عن النفس .

وها هو ذا يعذر نفسه من الفشل الذى منى به من قادة الثورة ، فيقـول :

صبرت على ريب هذا الزمان   ولولا المعـاذر لم أصـبر
فلا تحسبنى جهلت الصواب   ولـكننى هممت فلم أقـدر

وهو يبرىء نفسه أمام محكمة التاريخ فيقول :

فهل دفاعى عن دينى وعن وطنى   ذنب أدان به ظلماً وأغترب
أثريت مجدا فلم أعبأ بما سلبت   أيدى الحوادث منى فهو مكتسب

ويذكر وهو فى المنفى ماضيه الجميل ، والقدر الذى قدر له ، معللا نفسه بالصبر الجميل ، فيقول :

عصر تولى وأبقى فى الفؤاد هوى ... يكاد يشمل أحشائى بإحراق

والمرء طوع الليالى فى تصرفها ... لا يملك الأمر من نجح واخفاق

يا قلب صبرا جميلا إنه قدر ... يجرى على المرء من أسر وإطلاق

لابد للضيق بعد اليأس من فرج ... وكل واجبة يوما لإشراق

ويحن الشاعر فى منفاه البعيد إلى وطنه الحبيب ، وإلى سكنه القديم فى روضة المنيل الجميلة ، فيقول :

أين أيام لذتى وشبابى ... أتراها تعود بعد الذهاب

ذاك عهد مضى وأبعد شىء ... أن يرد الزمان عهد التصابى

ليت شعرى متى أرى روضة المنـ ... ـيل ذات النخيل والأعناب

ذاك مرعى أنسى وملعب لهوى ... وجنى حبوتى ومغنى صحابى

لست أنساه ما حييت وحاشا ... أن ترانى لعهده غير صابى

يا نديمى من سرنديب كفا ... عن ملامى وخليانى لما بى

كيف لا أندب الشباب وقد أصبـ ... ـحت كهلا فى محنة واغتراب

ويعود الشاعر من المنفى إلى وطنه عام ١٩٠٠ (تسع مائة وألف) فيستقبله بقصيدته الرائعة :

أبابل مرأى العين أم هذه مصر ... فإنى أرى فيها عيونا هى السحر

ويرى قصر الجزيرة مقر الحكم فى عهد إسماعيل ، حيث كان البارودى يعيش تحت سمعه وبصره ، ويرى جنود الاحتلال تدنس أرضه الحرة ، فيقول قصيدته الرائعة فى قصر الجزيرة ، ومنها هذا البيت الذى وجهه إلى المحتلين :

يا أيهـا السادر المزور من صلف   مهلا فإنك بالأيام منخدع

وبعد أربعة أعوام من عودة الشاعر يرحل إلى عالم الخلود ، ويصبح ذكرى خالدة على مر الأيام ، ذكرى شاعر وطنى من أعظم الشعراء الذين أنجبتهم مصر ، شاعر ظل يعتز طوال حياته بشعره ، ويقول :

سيبقى به ذكرى على الدهر خالدا   وذكر الفتى بعد الممات خلوده

ويرى أن الإنسان فى حياته وموته ذكرى فحسب :

فاختر لنفسك ما تعيش بذكره   والمرء فى الدنيا حديث يذكر

وانتهت حياة شاعر جمع بين مجد السيف ومجد القلم ، وقال :

فأصبحت محسود الجلال كأننى   على كل نفس فى الزمان أمير
إذا صلت كف الدهر من غلوائه   وإن قلت غصت بالقلوب صدور
ملكت مقاليد الكلام وحكمة   لها كوكب فخم الضياء منير

إنه البارودى شاعر الحب والحرب ، وشاعر الثورة والحرية ، وشاعر مصر الوطنى العظيم .

— ٢ —

وعندما قال محمود سامى البارودى قصيدته المشهورة :

الدهر كالبحر لا ينفك ذا كدر   وإنما صفوه بين الورى لمع
لو كان للمرء فكر فى عواقبه   ما شان أخلاقه حرص ولا طبع
دهر يغـــر وآمال تسر وأعـ   ـمار تمر ، وأيام لها خدع
يسعى الفتى لأمور قد تضر به   وليس يعلم ما يأتى وما يدع

كانت كل أسماع الناس تنصت لهذا الشيخ الحكيم ، الذى يهدى تجاربه إلى أمته ، رائداً ومعلماً ومرشدا .

وكان لهذا الصدى رنين شديد فى قلوب أبناء شعبه الذين كانوا يتابعون كل ما تجود به عبقرية الشاعر .

ويتساءل الناس : فيم كان نفى الشاعر الحكيم ؟ ولم أصر الذين نفوه على بقائه فى شيخوخته بعيداً عن وطنه ؟ ويأتيهم الجواب على لسان البارودى الشاعر نفسه قويا جليلا مؤثرا :

لم أقترف زلة تقضى على بما أصبحت فيه فماذا الويل والحرب ؟
فهل دفاعى عن دينى وعن وطنى
ذنب أدان به ظلما وأغترب !
ولا يظن بى الحساد مندمة فإننى صابر فى الله محتسب
أثريت مجداً فلم أعبأ بما سلبت
أيدى الحوادث منى ، فهو مكتسب

ولم يكن النفى بغريب على البارودى ، ولقد فارق وطنه فى أوائل عام ١٨٨٣ ميلادية ، فى سفينة أقلته مع رفقة له إلى سرنديب ، وفيها حط رحاله ، ولاقى من البؤس مالاقى وهو يردد :

أنا إن عشت لست أعدم قوتاً وإذا مت لست أعدم قبرا
همتى همة الملوك ونفسى نفس حر ترى المذلة كفرا

وفى المنفى يبلغ الشاعر وفاة زوجته فيرثيها بقصيدته المشهورة :

لا لوعتى تدع الفؤاد ولا يدى تقوى على رد الحبيب الغادى

يا دهر فيم فجعتنى بحليلة كانت خلاصة عدتى وعتادى
إن كنت لم ترحم ضناى لبعدها
أفلا رحمت من الأسى أولادى ؟
ألقين در عقودهن وصغن من در الدموع قلائد الأجياد

ولا تدانيها مرثية أخرى لشاعر فى زوجته ، إلا مرثية جرير لزوجته :

لولا الحياء لهاجنى استعبار ولزرت قبرك والحبيب يزار
ولقد أراك كسيت أجمل منظر ومع الجمال سكينة ووقار
وإذا سريت رأيت نارك نورت وجها أغر يزينه الإسفار
صلى الملائكة الذين تخيروا والصالحون عليك والأبرار

وظل البارودى يرسل الشعر أشجانا وأحزاناً وأنغاما ، يصور فيه أحداث دهره ، ومآسى حياته ، وفجائع الأيام التى صبت عليه ، وهو فى كل ذلك فى جوانح الناس ، وأفئدة المتذوقين لشعره الرفيع ، وقصائده الباكية الحزينة .

وأخذ يحتل بشعره ، منزلة الرائد لشعراء عصره ، والناهض بتراث أمته فى القريض .

وقد لبث الشعر يتعثر قبل البارودى فى أذيال التكلف والجمود ، حتى هيأ الله له هذا الشاعر الحكيم ، فرفع لواءه ، وشاد بناءه ، ونهض به نهضة صار يعرف مكانها ، ولا يجهل شأنها فى شعرنا الحديث .

وحين ظهر البارودى أخذ يعمل على أن يقيل الشعر من عثرته ، ويسير به إلى سابق نهضته ، فأحيا أيامه ، ورد إليه أحلامه ، ورفع فى سماء القريض

أعلامه ، ونظمه البارودى جزل العبارة ، فخم الأسلوب ، يأسر الألباب ، ويسحر الأفئدة ، وطار به فى سماء المتقدمين ، وحلق به فى أفق الجاهليين والإسلاميين والمحدثين ، واحتذى حذوه الشعراء ، فاستظهروا روائع الفحول ، وأشعار أعلام الشعر القديم ، من جاهليين وغير جاهليين ، فسمت مداركهم ، وثقفت ألسنتهم ، وقويت ملكاتهم ، ونبل قريضهم ، وكثرت روائعهم ، وأخذوا يتبعون مذهب أستاذهم البارودى فى نبذ المحسنات البديعية والتماسها ، وفى ترك الجهد فى إيرادها ، وفى الخروج من مجال التقليد إلى ميادين التجديد ، ونسجوا على منوال المتقدمين ، فأتى نسجهم متلاحما ، مشرق الديباجة ، لحمته الجزالة والرصانة ، وسداه الحلاوة والإبانة .

واجتمعت للنهضة الشعرية بصنيع البارودى وتلامذته كل أسباب القوة . فهذه طريقة الملكة العربية قد عبدها بشعره ، وذلك بحر المعانى المنسابة من الحياة ومن الآداب العالمية قد فاض مده على جوانب القصيدة الشعرية .

وهكذا كان من أعظم المظاهر فى تطور الشعر على أيدى البارودى ومدرسته ، النزوع به إلى أساليب البلاغة العربية ، وترك الافراط فى الصنعة والمبالغة والابتذال والتقليد ، وعدم الاكثرات للمحسنات البديعية . وإذا جعلنا بعض الحوادث الكبرى مجازا ينتقل عليه الشعر من حال إلى حال ، فإنا لا ننسى أن من تلك الحوادث ظهور البارودى ، فإنه كما يقول النقاد والباحثون : قد طفر بالشعر العربى من حضيضه الراكد الآسن إلى ثبج بحر خضم تتلاطم أمواجه ويعب عبابه ، ويعلو تياره ؛ وتفيض بحاره ؛ فرأينا فى شعره جاجلة أساليب الأقدمين وقوة روحهم ، وأسمعنا على بعد العهد جزالة

جزالة أبى تمام ، وصفاء ديباجة البحترى ، وقوة أوصاف المتنبى للحروب والمعارك ، بل أرانا صورة مجتمعة من قوة اللفظ ، ووضوح النهج وجلال المعانى ، مما عرفه الناس من قبل البارودى لفحول الشعراء العباسيين .

وكان البارودى حين نشر للناس مطارف شعره ، خلبهم بهذه المحاسن المجتمعة ، وروى ظمأهم من تلك الجزالة التى تشتاق إليها النفوس فى جدها وتحتاج إليها النهضات فى أوائلها ، ودل الناس على أسباب ذلك الفضل الذى جمعه لنفسه ، فعرفوا شعر القدماء ، وزاد الاقبال على حفظه ، والنظم على منواله ، وساروا فى النهج الذى اختطه البارودى لنفسه ، فترسموه ، وحاكوه فى منهجه وأسلوبه وحفظوا قصائده وعارضوها : وأخذت تقوى ملكاتهم ومواهبهم ، وأخذ الشعر يسير جزلا فخماً شريف اللفظ ، مونق الأسلوب مشرق الديباجة متلاحم النسج ، عذب الموسيقى رصين القافيـة .

على أن البـارودى مع علو شأنه ، وسمو مكانه فى الشعر ، لم يكن يتجاوز أغراض السابقين ، ولم يرم إلى غير أهداف المتقدمين ، من غزل ومديح ، وهجاء ورثاء ، كان قد أعرض عن الفخر، وقصر مدائحه ومراثيه على عظماء الرجال ، وفى كهولته شارك بالشعر فى الأحداث الكبرى فى أمته ، وأرسله فى الحكمة ، وتجـارب الأيام ، وصروف الزمان . ووصف فواجع الخطوب والأحداث . كل ذلك فى قول رصين ، يحاكى شعر فحول الشعراء العباسيين ، ولا يقصر عن عبارة اعلامه المتقدمين ، من أمثال البحترى وأبى تمـام وابن الرومى ، والمتنبى ، والرضى ، ومهيـار والمعرى وغيرهم من الشعراء الكبار فى شعرنا العربى ، حتى ليمكن أن يقال : إنه

منذ مئات السنين لم يجئ من الشعراء من يفوق البارودى أو يدانيه فى ذلك كله . ويقول عنه أستاذه المرصفى ، الشيخ حسين ، صاحب كتاب « الوسيلة الأدبية » : « أولع البارودى ، وهو غض الحداثة ، بحفظ الشعر . وأخذ نفسه بدرس دواوين الفحول من شعراء المتقدمين ، حتى كان فصيح اللسان ، مطبوعا على الاعراب دون أن يتعلم النحو ، فأخذ يقول الشعر فى أغراضه المختلفة ، ونهض به نهضة عظيمة ، وأعاد إليه حلته العربية ، وبهجته البدوية ، حتى شاكل الشريف الرضى ، فى جزالة اللفظ ، ومتانة النسج وقوة الكلام ، ولم يتخلف عن متقدمى الشعراء فى شىء » ؛ على أنه أربى عليهم ، بما جال فى فنون المعانى التى تجلت بها الحضارة الجديدة ، وما وصف من مخترعات أخرجها العلم الحديث ؛ وتدور أخيلته ومعانيه بين توليداته العجيبة فى معانى السابقين وأخيلتهم ، وبين ما أثارته أحاسيسه المصرية الخاصة ، وهى بين مولدة ومخترعة ، مما كان آية القدرة ، ومراد الفن ، ومظهر العبقرية ؛ ومما انقطع عنه ، أو عما دونه بسكثير ، طموح شعراء عصره .

وقد حلق شيخ الشعراء البارودى فى وصف المعارك ، وفى الشكوى والحنين إلى الوطن ، وفى مواقف البطولة والصمود والعزة ، مما لا يطمح فى مثله إلا الأبطال الملهمون ؛ ويقول عنه أحد أعلام الشعر الحديث ، وهو خليل مطران : « إن شعر البارودى هو بجملته صناعة لا تنافس بقديم أو حديث ، وقد كان هو أول شعراء البعث الحديث ، وأول من رد الديباجة إلى بهائها وصفائها القديمين ، وما أعلى قريضه على قريض شعراء جيله ، فانك لتجد الواحدة من قصائده ذاهبة صعدا إلى عهد أرقى أزمنة العرب ، فهى

كالجبال الشامخة ، وحولها القصائد الأخر كالأركان المقامة من حجارة أطلال ، بلا اختيار ولا اتساق ولا هندام » .

وقد ذاعت نماذج البارودى الشعرية بين شعراء وشباب وأدباء عصره ، فهذه قصيدته :

سواى بتحنان الأغاريد يطرب	وغيرى باللذات يلهو ويعجب
وما أنا ممن تأسر الخمر لبه	ويملك سمعيه اليراع المثقب
ولكن أخوهم إذا ما ترجحت	به سورة نحو العلا راح يدأب
همامة نفس أصغرت كل مأرب	فكلفت الأيام ما ليس يوهب
ومن تكن العلياء همة نفسه	فكل الذى يلقاه فيها محبب
إذا أنا لم أعط المكارم حقها	فلا عزنى خال ولا ضمنى أب
خلقت عيوفا لا أرى لابن حرة	على يدا أغضى لها حين يغضب
أسير على نهج يرى الناس غيره	لكل امرئ فيما يحاول مذهب

وهى التى عارض بها البارودى قصيدة الشريف الرضى :

لغير العلا منى القلى والتجنب	ولولا العلا ما كنت فى الحب أرغب

وقد نظم البارودى هذه القصيدة فى شبابه ، وتحدث فيها عن عزة نفسه ووصف أخلاقه من الجد والطموح والعزيمة والشمم وصفا دقيقا ، وأسلوبها يحاكى نسج العباسيين فى عصور ازدهار اللغة والبيان والشعر ، وتلك هى إحدى مزايا البارودى ، إذ جدد شباب العربية ، ونهض بأسلوبها نهضة لم يكن لها شبيه فى عصره ، ولكن أخيلة ومعانى

هذه القصيدة لا تخرج عن تقليد معانى القدماء والسير على نهج أخيلتهم ، وفى طريقهم .

وشاعرية البارودى على هذا الاعتبار وليدة عوامل كثيرة كلها يصلح وحده لأن يكون مذكيا لجذوتها ، مشعلا لجمرتها ، فهو قارىء للشعر ، حافظ للكثير منه ، ناقد له يعرف جيده من رديئه ، وقديما كان العربى يقول : « احفظ تقل ، إن الكلام من الكلام » .. ثم هو ملم بالأدبين التركى والفارسى . وكذلك علمته تجارب الأيام ، وأنطقته حوادث الزمان بالشعر البليغ ، إلى الموهبة ، والملكة ، وإلى أثر أستاذه المرصفى فى حياته ، مما جعل له هذه الشاعرية الفذة ، والطاقة الكبرى ، والمنزلة الجليلة بين الذين كانوا قبله ، والذين جاءوا بعده ، ويقول العقاد فيه : « إن له ميزة واضحة لا نظير لها فى تاريخ الأدبى العربى الحديث ، وتلك أنه وثب بالعبارة الشعرية وثبة واحدة ، من طريق الضعف إلى طريق الصحة والمتانة كأنه القمة الشاهقة ، وهذه وثبة قديرة فى تاريخ الأدب العربى ترفع الرجل إلى مقام الطليعة » .

وليس من ريب فى أن ظهور هذا الشاعر كان بمثابة الحركة الفكرية التى لفتت الأذهان ، وشغلت العقول ، وملكت على الناس مواطن الإعجاب والتقدير .

وانظروا معى إلى هذا النموذج الجديد فى الغزل ، وإلى رقة الشاعر فيه ، يقول البارودى :

غلب الوجد عليه فبكى ... وتولى الصبر عنه فشكا

وتمنى نظرة يشفى بها ... غلة الشوق فكانت مهلكا

قد ملكت القلب فاستوص به إنه حق على من ملكا
لا تعذبه على طاعته بعد ما تيمته ، فهو لكا
غلب اليأس على حسن المنى فيك واستولى على الضحك البكا
فإلى من أشتكى ما شفنى من غرام ، وإليك المشتكى

وروعة هذا الغزل — كما يقول بعض النقاد الدارسين — تأتى من أنه صادر عن قلب لا يتكلف الحب ، وأنه يستقل بألم مضن ، تتضرم نيرانه فى نفس البارودى ، والنغم يتدفق سلاسة وحلاوة ، يسنده حس قوى دقيق به وعواطف لاذعة من الهيام والشوق واللوعة .

وهناك نموذج آخر مشهور للبارودى ، هو رائيته المشهورة :

أبى الشوق إلا أن يحن ضمير وكل مشوق بالحنين جدير

وهى التى عارض بها رائية أبى نواس المشهورة فى مدح الخصيب أمير مصر ، لعهد الرشيد :

أجارة بيتينا أبوك غيور وميسور مايرجى لديك عسير

وفى هذه المعارضة يقول البارودى :

فيا قاتل الله الهوى ما أشده على المرء إذ يخلو به فيغير
تلين إليه النفس وهى أبية ويجزع منه القلب وهو صبور
فيا لسراة القوم دعوة عائذ أما من سميع فيكمو فيجير
أطال على الليل حتى مللته وعهدى به فيما علمت قصير

إلى آخر هذه المعارضة الشعرية الطويلة المشهورة التى يقول فى آخرها :

حمامة نفس ليس يذكى طموحها	رواح على طول المدى وبكور
معودة ألا تكف عنانهـا	عن الجـد إلا أن تتم أمور
لها من وراء السر أذن سميعة	وعين ترى ما لا يراه بصير
وأصبحت محسود الجلال كأننى	على كل نفس فى الزمان أمير

ولا يخفى علينا فرق ما بين تجديد البارودى وتجديد أعلام مدرسته فى الشعر من أمثال شوقى وحافظ ، وأضرابهما .

لقد كان تجديد البارودى فى الشعر من ناحية الرجوع به إلى العصر العباسى البعيد ، عصر نهضة الشعر وازدهاره ، حيث ترسم آثار أبى نواس وأبى فراس والمتنبى والشريف الرضى وغيرهم ، من حيث الصياغة والمعانى وفحولة اللفظ وكثير من الأغراض .

وأما تجـديد شوقى وحافظ فلم يكن كذلك يسير فى نطاق التقاليد القدماء والرجوع إلى بلاغة العصر العباسى وحده ، وإنما كان مع ذلك تطويع لأفكار الشعر ومعانيه وأغراضه للحياة والعصر والبيئة ، وفى تطويع الأسلوب الشعرى للذوق والحضارة والترف والغناء والنغم ، وكان كذلك فى تطعيم الشعر العربى بالشعر الأجنبى قليلا قليلا .

ومن حيث كانت كلاسيكية البارودى القديمة تسود الشعر فى عصره ، كانت الكلاسيكية الجديدة على أيدى شوقى وحافظ وأضرابهما هى النزعة السائدة الواضحة بعد عصر البارودى .

والبارودى على أية حال هو حامل لواء الشعر العربى الحديث ، ورائد

الشعراء فى أجيالنا الحاضرة ، وأستاذ شوقى وحافظ وأحمد محرم ومصطفى صادق الرافعى وغيرهم من أعلام الشعر الحديث فى العالم العربى .

وقد حافظ هو ومدرسته على عمودية القصيدة الشعرية ، وعلى مواريث الشعر العربى وأدى الشعر للأجيال التى تليه كأحسن ما يكون الأداء .

وأخيراً توفى عام ١٣٢٢ هـ — ١٩٠٤ م عن سبعة وستين عاما هجرياً ، أوخمسة وستين عاما ميلادياً ، وترك وراءه ذكرا خالدا لا يبلى على مرور الأيام .

والبارودى قصيدة مشهورة ، قالها بعد عودته من المنفى عام ١٩٠٠م ؛ حيث مر بقصر الجزيرة فتذكر ساكن القصر إسماعيل وعهده وأيامه ، حيث كان الشاعر آنذاك فى نضرة الشباب ، وروعة الصبا . وكانت مطامحه وآماله الكبيرة تدفع به حينذاك إلى الإقدام والعمل والكفاح من أجل الوطن وحريته وكرامته ؛ وفيها يقول :

هل بالحمى عن سرير الملك من يزع

هيهات قد ذهب المتبوع والتبع

هذى الجزيرة . فانظر هل ترى أحدا

ينأى به الخوف أو يدنو به الطمع

أضحت خلاء وكانت قبل منزلة ... للملك منها لوفد العز مرتبع

فلا مجيب يرد القول عن نبأ ... ولا سميع إذا ناديت يستمع

كانت منازل أملاك إذا صدعوا ... بالأمر كادت قلوب الناس تنصدع

عاثوا بها حقبة حتى إذا نهضت ... طير الحوادث من أوكارها وقعوا

لو أنهم علموا مقدار ما فقدت به الحوادث ما شادوا ولا رفعوا

دارت عليهم رحى الأيام فانشعبوا
أيدى سبـــا وتخلت عنهم الشيع

كانت لهم عصب يستدفعون بها كيد العدو فما ضروا ولا نفعوا

أين المعـــاقل بل أين الجحافل بل
أين المنــاصل والخطيــة الشرع ؟

لا شيء يدفـــع كيد الدهر إن عصفت
أحـــداثه أو يقى من شر ما يقـــع

زالوا فما بكت الدنيا لفرقتهم ولا تعطلت الأعيـــاد والجمـــع

والدهر كالبحر لا ينفك ذا كدر
وإنمـا صفـــوه بين الورى لمـع

لو كان للمرء فكر فى عواقبه ما شان أخلاقه حرص ولا طبع

وكيف يدرك ما فى الغيب من حـدث
من لم يزل بغـرور العيش ينخـدع

دهر يغر وآمال تسر وأعـ مار تمر وأيام لها خـــدع

يسعى الفتى لأمور قد تضر به وليس يعـــلم ما يأتى وما يدع

يا أيها السادر المزور من صلف مهلا فإنك بالأيام منخدع

دع ما يريب وخـــذ فيما خلقت له
لعـــل قلبك بالإيمان ينتفـــــع

إن الحيـــاة لثوب سوف تخلعه وكل ثوب إذا ما رث ينخلع

ويقول بعض النقاد[1] ، إن تلك القصيدة من أجود شعر البارودى ، وهى دمعة وفاء على أيام إسماعيل التى كانت أيام صباه ، وهى من الشعر الحى الذى يستمد قوته من الذكرى ، وهى بكاء الحال التى آلت إليها البلاد بعد عودته إليها ورؤيته المحتل ضاربا بجرانه فى نواحيها ، ولا ريب أن الألم الصامت كان فى فؤاده كالجمر ، فلم يصرح عنه مقاله ، وأشد الألم ما كان مكتما . وتدل القصيدة على أن الرجل كان ثاقب الفكر لا تعوقه الظواهر عن رؤية أبعد البواطن ، من ذلك نفهم كيف كان الشاعر بالأمس يبكى من إسماعيل فأصبح يبكى عليه ، وكأنى بالشاعر أحس دنو الأجل ، فاستسلم للقضاء فى هذه القصيدة ، ولم تحفزه همته إلى الفخر ومغالبة الأقدار ، ورثى نفسه فيمن رثى حين قال :

زالوا فما بكت الدنيا لفرقتهم ولا تعطلت الأعياد والجمع

وقد تكون هذه القصيدة فى جملتها أثرا من آثار التأمل الذى يعترى الإنسان عند تقلص الأيام ، وتقلب الدنيا ، ويدفعه إلى عرض الماضى فى صفحة الفكر ، فإذا بكى علية كان بكاؤه المر عصارة التجارب والألم ، وأكثر شعر البارودى ارتباطاً بحياته : شعر المنفى : شعر العواصف ، شعر الوجدان ، شعر الألم ، وليس فى هذا الشعر ما يبعث على اليأس ، وإنما هو درس من دروس الشجاعة والصبر والجلد ، فأخلق به أن يكون أنشودة الصبى فى مكتبه ، والناسك فى صومعته ، والوطنى فى جهاده . .

---

(١) ٧٤ أدب وتاريخ د . محمد صبرى — طبع دار الكتب المصرية عام ١٩٢٧

لكن هل القصيدة بكاء على إسماعيل وحكمه ؟

ذلك ظاهر القصيدة ، وقد نعلل لهذا الظاهر بأن الشاعر رأى المحتلين في بلاده فكرههم ، وسخط على حكمهم ، وعادت الأيام التي كانت قبيحة عنده من قبل جميلة المنظر ، جليلة الرواء ، وكما يقول ابن المعتز :

رب يوم بكيت فيه فلما صرت في غيره بكيت عليه

وقد يكون الشاعر بهذه القصيدة فضل الحكم الوطني على فساده والتياث أمر قادته ، على حكم المحتلين ، أيا كان هذا الحكم ، ومن ثم تذكر عهد إسماعيل وبكى عليه وقص ذكرياته عنه .

وقد نستطيع أن نقول : إن الشاعر لم يبك إسماعيل وعصره على الحقيقة ، بل تحدث عن أيامه وحكمه وما كان يحيط به من أشياع وأتباع ، وما كان يسنده من قوة وجيوش ، وعن ذهاب كل ذلك وزواله ، وعصف الحوادث والخطوب بإسماعيل ومجده وسلطانه ، ليكون ذلك آية للمعتبرين ، وعظة للمتبصرين . والشاعر لم يجامل إسماعيل وأسرته في هذه القصيدة ، بدليل قوله « عاثوا بها حقبة » أي أفسدوا بها زمنا .

وربما كانت القصيدة مقصودا منها الرمز والتاريخ والتعريض بالمحتلين ، وأنهم مهما ساندتهم القوة والرماح فسيذهبون ، ويعصف بهم الدهر وأحداثه وليكن لهم في إسماعيل وأيامه عبرة وعظة ، ويؤكد مضمون هذا الرمز قول الشاعر :

يا أيها السادر المزور من صلف مهلا فإنك بالأيام منخدع

فهذا البيت في رأيي خطاب وتحذير للمحتلين ، وتهديد ووعيد لهم ، وأنهم مهما طاولوا الأيام فستطولهم الأيام وتنال منهم .

ومن هذا يبقى للبارودى وجهه الوطنى العظيم ، إنه لم يشايع ذرية إسماعيل ولم يمالىء المحتلين الغاصبين ، وبقى يغنى لوطنه فى خفية ورمز ، كما كان يغني له من قبل في قوة وجهر .

وهل المقصود بالقصيدة الموعظة ؟ ذلك ظاهر القصيدة أيضا ، فالشاعر يتحدث عن إسماعيل وقوته ومعاقله وجحافله وأنها لم تغن عنه من الأيام شيئا ، وأن الخطوب أتت فعصفت به فلم تبق له رسما ولا وسما ، ولم تبك الدنيا لفرقته ولا تعطلت الأعياد والجمع حزنا عليه ، فأولى بالمخدوع بالدهر ألا ينخدع به ، أو يطمئن إليه ، أو يأمن بطشه وعصفه وأخذه الشديد .

ومن ثم قال بعض الكتاب فى القصيدة : إنها من آيات النذر للمغرورين .

وفى رأيى أن القصيدة تتعدى الموعظة إلى الثورة ، وتتجاوز النصيحة إلى الوطنية ، وتترك اليأس إلى القوة ، والألم إلى الأمل .

فهى فى جملتها نذير للمحتلين ، ووعيد لهم بأن قوتهم لن تغنى عنهم من الله والأيام شيئا ، وأن الجدير بهم ألا يغتروا بجيوشهم وأتباعهم ، فيقعوا فيما وقع فيه إسماعيل ، حيث صار بعد حين أثرا بعد عين ، وخبرا بعد واقع ممض ، وحياة مريرة . وهى فى جملتها إعلان للوطنيين أيضا بألا ينخدعوا بقوة المستعمرين ، وألا يفقدوا إيمانهم بقوة الله وعدله وبحق الوطن ومستقبله .

— ٣ —

وعلى الجملة فقد كان شيخ الشعراء البارودى بشاعريته المحلقة، وموهبته الفذة، الرائد الأول للشعر العربى الحديث وأستاذا لأجيال تليه من الشعراء المبرزين، وفى مقدمتهم شوقى وحافظ ومحرم والرافعى وغيرهم.

وقد أجاد فى وصف المعارك والآثار، وفى وصف الطبيعة، وفى الوطنية والثورة، وفى الغزل والحنين إلى الوطن، وفى الحكمة والسياسة.

وعبر فى شعره عما كان يجيش فى نفوس الأحرار من أبناء مصر جميعا: من ثورة وطموح وألم وأمل ورغبة فى الإصلاح.

وبعث الشعر بعثا جديدا أقاله من عثرته، وأنهضه من كبوته، وأيقظه من رقدته، فأعاد له معانيه الحكيمة، وتجاربه العميقة وصياغته الناصعة، وديباجته المشرقة.

استطاع أن يبعث فيه من جديد أصداء الفن والشاعرية والحرية، مما كان سمة لعصور النهضة والقوة والجزالة، بعد أن نفض عنه غبار الجمود والتقليد الذى ران عليه، وسد منافذ الحياة أمامه منذ عصور الضعف والركاكة والزخارف اللفظية الباهتة.

بل لقد استطاع مع ذلك أن يهز الوجدان المصرى العربى فى عصر إسماعيل وتوفيق وعباس هزا عميقا، وأن يكون الموقد لمشاعل الحرية والوطنية والثورة فى أدبنا الحديث وأن يكون المؤثر فى الجماهير بصياغته الفخمة وبيانه الناصع ونبراته الصادقة، وعبر عن ذات نفسه

فى خضم الأحداث التى أحاطت به وبوطنه فى عصره تعبيرا بليغا قويا مؤثراً .

ولقد شهد له النقاد جميعا بأنه أبو الشعر العربى الحديث وباعث نهضته ، وبأنه الرائد المحلق الذى اقتفى أثره الشعراء جميعا . . ومات البارودى وبقى شعره على الزمن يخلد ذكراه ، وقد كان البارودى بسبق الأيام حين قال فى شعره .

سيبقى به ذكرى على الدهر خالداً
وذكر الفتى بعد الممات خلوده

وقد أخذه شوقى فقال : والذكر للانسان عمر ثانى .

ومن شعره المأثور :

لو كان للمرء عقل يستضىء به
فى ظلمة الشك لم تعلق به النوب

ولو تبين ما فى الغيب من حدث
لكان يعلم ما يأتى و يجتنب

لكنه غرض للدهر يرشقه
بأسهم ما لها ريش ولا عقب

فكيف أكتم أشواقى وبى كلف
تكاد من حسه الأحشاء تنشعب

أم كيف أسلو ولى قلب إذا التهبت
بالأفق لمعة برق كاد يلتهب

أصبحت فى الحب مطويا على حرق
يكاد أيسرها بالروح ينتشب
إذا تنفست فاضت زفرتى شررا
كما استنار وراء القدحة اللهب
لم يبق لى غير نفسى ما أجود به
وقد فعلت فهل من رحمة تجب

* * *

أمير الشعراء أحمد شوقى

١٨٦٨ — ١٣ أكتوبر ١٩٣٢

لم يشهد الشعر العربى الحديث مجدا كالمجد الذى عاش فيه على يدى أمير شعرائه أحمد شوقى ، لقد حمل لواء الشعر أربعين عاما والشعراء يسيرون وراءه فى جميع الأقطار العربية كما يقول د . أحمد ضيف ، إذ كان منحة أجيال كما يقول د . على العنانى ، وفاخر به جيلة الأجيال كلها إذ حاز الشرف الأكبر بظهور أمير الشعراء فيه ، وفى ذلك ما فيه من معانى المجد الدائم لمصر فى هذا العصر ، كما يقول شيخ العروبة أحمد زكى باشا (الأهرام ٥ ديسمبر ١٩٣٢) ، بل لقد نبه الجيل كله بشوقى ، وعقد شعره على جبين مصر تاج الزعامة فى الشعوب العربية كما يقول على محمود طه ، وكانت طاقة شوقى الفنية ضخمة وموسيقاه أعذب فى جملتها من موسيقى أكبر شعراء العربية كالمتنبى ، إذ كان فى مجمل شاعريته وآثاره مرحلة تقدمية فى الشعر العربى الحديث كما يقول د . أحمد زكى أبو شادى . وقد فاق شعراء عصره ومن قبلهم من بعد القرن الرابع الهجرى بمعانيه المبتكرة التى كانت ثروة للعربية وأدابها كما يقول أحمد الاسكندرى . وناهيك بعبقرية شوقى التى اعترف بها جميع الأدباء والنقاد فى عصر شوقى وبعد عصره ، والتى كانت كمنجم الماس يمتلىء بالثراء والغنى دون حدود :

بدأ شوقى ينظم الشعر وهو فى الرابعة عشرة من عمره فى رعاية أستاذه الشيخ محمد البسيونى الأستاذ الأول له فى مدرسة الحقوق الخديوية ، وأقبل على

دواوين الشعر وكتب الأدب وقرأ على الشيخ حسين المرصفى كتابه الكشكول وديوان البهاء زهير ، كما قال هو فى حديثه مع سليم سركيس فى فبراير ١٨٩٧ ، ثم قرأ شعر ابن النبيه وابن مطروح والحاجرى والتلعفرى فأخذ عنهم سهولة اللفظ وعذوبة الموسيقى ونهل من شعر أبى نواس وأبى تمام والبحترى والمتنبى والشريف الرضى والمعرى ومهيار وابن زيدون وابن خفاجة الأندلسى وابن حمديس وابن هانىء والبارودى وأخذ عنهم كل سمات شعره التى عرف بها وحرص عليها ، ثم قرأ آداب كتاب فرنسا وشعرائها وبخاصة شعر هوجو ولامرتين وموسيه وجمع بين أغراض القدماء وتجديدات المحدثين ، وموسيقى المعاصرين ، وكتب فى أغراض جديدة من الاجتماع والسياسة والملاحم التاريخية والقصص الشعرى والروايات التمثيلية ، وأجاد فى وصف الطبيعة ، وعبر عن النزعات الإسلامية والوطنية والعربية ، فى موسيقى ضاهت موسيقى البحترى وابن زيدون وابن حمديس ومهيار ، وبلغ فى عذوبة اللفظ وسهولة الأسلوب ما لم يبلغ أحد من شعراء المدرسة المصرية الحديثة، وحسبنا أن الشعراء المولعين بالموسيقى فى عصره تأثروا به وتابعوه فيها ، من مثل ناجى ، وعلى محمود طه ، وصالح جودت وأضرابهم ، وكانت رسالة شوقى الأولى الغناء بمجد مصر وبتاريخ العرب والإسلام ، تسعفه فى ذلك ثقافته التاريخية الواسعة . وكان شعره دليلا قويا على قدرة العربية على استيعاب المعانى العصرية فى أسلوب كلاسيكى ساحر ، يمرح فيه الخيال ، وتخطر فيه الموسيقى ، وتتألق فيه المعانى والصور الفاتنة الجميلة ، وكان شوقى دائما شاعر العبقرية كما وصفه الزيات ، وكان التفات شوقى إلى المعانى دائما يفوق

التفاته إلى اللفظ إذ كان خاصية من خصوصيات فنه . وقد استطاع بعد عودته من المنفى أن يتشرب روح الشعب وأن يشاركه آلامه وآماله ، وأن يعيش معه فى نضاله من أجل الحرية والتقدم ، وبلغ بذلك شعره أقصى مايمكن من الذيوع ، إذ صار على لسان الجماهير ، وشدا به الناس فى كل محفل .

ولقد ولد شوقى فى عام ١٨٦٨ ، وكانت جدته من وصائف القصر فى عصر إسماعيل ، فوصلته بالخديويين من طفولته . ودخل مكتب الشيخ صالح عام ١٨٧٢،ثم التحق بالمدرسة الخديوية،ثم بمدرسة الحقوق عام ١٨٨٥ ، وفى عام ١٨٨٧ أرسل توفيق شاعرنا أحمد شوقى على نفقته لإتمام دراسته فى باريس ، وعاد إلى وطنه عام ١٨٩١ ليعمل فى المعية السنية ، وصار شاعر القصر ، وفى عام ١٨٩٤ مثل مصر هو وأحمد زكى شيخ العروبة وعمر لطفى وكيل مدرسة الحقوق فى مؤتمر المستشرقين الذى عقد فى جنيف بسويسرا ، وتزوج إحدى بنات حسين شاهين باشا ، فبلغ للدى شعره وجاها وثراء .

كتب شوقى قصائد فى مختلف الأحداث والمناسبات ، وكتب رواية « على بك الكبير » عام ١٨٩٣ ، ورواية « عــذراء الهند » عام ١٨٩٧ ، ورواية لادياس عام ١٨٩٩ ، ورواية « آخر الفراعنة » عام ١٩٠٠ ، ورواية شيطان بنتاؤور وقد نشرتها « المجلة المصرية » التى كان يصدرها مطران عام ١٩٠١ ، ورواية « ورقة الاس » عام ١٩٠٤ ، وصدر الجزء الأول من ديوانه عليه تاريخ ١٨٩٨ وهو تاريخ بدء الطبع لأن الديوان لم يظهر إلا عام ١٩٠٠،وقد ظهرت له طبعة ثانية عام ١٩١١ . ويشمل الجزء الأول شعره

من عام ١٨٨١ حتى عام ١٨٩٨ وصدرت طبعة ثانية كاملة للشوقيات قبل وفاته بقليل ، فظهر الجزء الأول فى مايو ١٩٢٦ ، والثانى عام ١٩٣٠ ، والثالث « المراثى » سنة ١٩٣٦ بعد وفاته ، والرابع عام ١٩٤٢ ، وأصدر المرحوم محمد صبرى السوربونى بعد ذلك بأكثر من عشرين عاما « الشوقيات المجهولة » . ولشوقى كتابه النثرى الجميل « أسواق الذهب » وقد ظهرت الطبعة الأولى منه عام ١٩٣٢ ، والثانية عام ١٩٥١ . وله كتاب « دول العرب وعظماء الإسلام » وهو ملحمة شعرية تاريخية طبعت بعد وفاته عام ١٩٣٣ .

أما رواياته المسرحية : فقد ظهرت الطبعة الأولى لرواية « مصرع كليوبترا » فى أبريل ١٩٢٨ ، وظهرت رواية قمبيز عام ١٩٣١ . وصدرت الطبعة الثانية لرواية « على بك الكبير » فى مارس ١٩٣٣ مع تعديل جوهرى فى الطبعة الأولى . وظهرت رواية « مجنون ليلى » عام ١٩٣١ ، ورواية « عنترة » ، و « أميرة الأندلس » عام ١٩٣٣ ، ثم رواية « السيدة هدى » التى طبعت بعد وفاته بكثير . أما روايته « البخيلة » فلا تزال غير مطبوعة . وظهرت روايته « قمبيز » قبل وفاته بقليل .

وفى عام ١٩٢٧ عقد فى مصر مؤتمر لتكريمه اشترك فيه شعراء مصر وشعراء العالم العربى ، حيث بايعوه بامارة الشعر . . وتوفى شوقى فى ١٣ جمادى الثانية من عام ١٣٥٦ هـ . ١٣ أكتوبر من عام ١٩٣٢ ، فبكته مصر والعالم العربى أحر بكاء ، وأقيم مهرجان كبير لتأبينه فى دار الأوبرا المصرية فى مساء يوم الأحد الرابع من ديسمبر ١٩٣٢ ، كما أقيمت حفلات التأبين له فى جميع أنحاء الوطن العربى وفى المهجر الأمريكى وفى مختلف المدن المصرية ، وأبن فى القاهرة فى مهرجان شعرى كبير آخر فى مدرسة التجارة العليا بالمنيرة

فى الخامس من ديسمبر عام ١٩٣٢ . وكتب عن شوقى فى حياته وبعد مماته آلاف المقالات ، والعديد من الدراسات النقدية التي لا تحصى .

وكان نفى شوقى إلى أسبانيا عام ١٩١٤ حتى عام ١٩١٩ ، بسبب الظروف السياسية آنذاك من أهم الأحداث الكبرى فى حياته وفى شاعريته وفى صلته بجماهير أمته .

ولقد هاجم مصطفى صادق الرافعى شعر شوقى بمقال مستعار التوقيع كتبه عام ١٩٠٥ فى مجلة الثريا ، وقسم فيه شعراء عصره إلى طبقات ثلاث :

الأولى : جعل فيها البارودى ، والكاظمى ، وحافظا والرافعى نفسه .

والثانيـة : جعل فيها صبرى ، وشوقى ، ومطران ، والبكرى ، وأمين الحداد ، ومحمد واصف ، وشكيب أرسلان ، وحفني ناصف ، ومحمد هلال إبراهيم .

والثالثة : جعل فيها الكاشف ، والمنفلوطى ، وأحمد محرم ، وأمام العبد وأحمد نسيم ، ومحمد النجفى ، والعربى .

وقال فى المقال : إن شهرة شوقى ترجـع إلى خلو الجو له آنذاك ، إذ كان الكاظمى فى العــراق ، والبارودى فى المنفى فى سيلان ، وحافظ فى السودان ، والرافعى لم يكن قـد شهر بالشعر بعد . وصبرى كان مشغولا بغنــائياته .

ثم هاجمتـه أيضا مدرسة الديوان التى كان روادها هم عبد الرحمن شكرى والعقاد والمازنى ، وأصدرت كتابها المشهور الديوان عام ١٩٢١ ، الذى حمل نقدا قاسيا لشوقى وشعره .

ومع كل ما وجه إلى شوقى من نقد فقد بقى اسمه ، وخلد شعره ، على مرور الأجيال ، وكأنه نغم علوى ساحر متجدد على مر السنوات .

وليس بدعًا فى سنة الله أن ينضح طبع شوقى بكل هذا البيان العربى ؛ وهو فتى لا يتصل نسبه بأبناء العرب من أمه وأبيه بسبب ، ولا كان محصوله من لغتهم وأشعارهم ومظاهر بلاغتهم بأوفر من محصول من نشأ فيهم من أهل البيان ، وألا فمن علم البـدر كيف يتألق ؟ ومن علم الغدير كيف يترقرق ، إلا ذلك تقدير العزيز العليم . . كما يقول الرافعى ، رحمه الله ورحم أمير الشعراء .

* * *

شوقى الرائد الثانى لمدرسة البعث

وهكذا احتل أمير الشعراء شوقى فى أمته منزلة الرائد والموجه والحادى لنهضتها ، والمؤمن بعزتها ومجدها وحريتها ، وحين نفض يديه من كل شيء اتجه إلى الشباب يخاطبهم ويحثهم على العمل والبناء ، ويبشرهم بغد أفضل ، وليس أجمل من حديث الرائد إلى الشباب جيل الغد ، وبناة المستقبل ، وعتاد الأمم فى سيرها إلى المجد والعزة والكرامة .

وشعر شوقى ذوب من العبقرية والتجربة والحكمة ، ولحن سماوى نبيل مؤثر ، نسجه الحق والفكر والعقل الخبير بأحداث الأيام ، وسير التاريخ ، وعبر الحياة . .

وكان شوقى قد بلغ قمة المجد الشعرى ، شعره على ألسنة الناس ، مكانته بين العرب والمسلمين مكانة جليلة لاتدانيها مكانة ، الشعراء قد اصطفوه أميرا لحركتهم الشعرية الجديدة ، والتى يمكن أن نسميها « الكلاسيكية الجديدة » ، حفاظ على تراث الشعر ، مع العمل المستمر فى تطويره ، التزام كامل بعمود الشعر كما فهمه القدماء ، ومع هذا فالكلمة والجملة والغناء والموسيقى تخضع لاختيار شديد ، وتطويع دقيق من أجل النغم ، وبساطة اللحن ، وجمال الصورة ، وروعة الخيال ، ومطابقة الأسلوب والكلمة للموضوع والغرض والفكرة ، وكما كان « أندريه شينيه » الشاعر الفرنسى (١٧٦٢ — ١٧٩٤) يخاطب عشاق الشعر الكلاسيكى الإغريقى القديم ، ليوجههم نحو الكلاسيكية الجديدة فيقول لهم : « لنصغ أفكارا جديدة فى ثوب قديم » وينظم قصائده يتخذ لكل منها موضوعاً يصب فيه

أفكاره وأحاسيسه الحضارية الجديدة ، فى أسلوب سهل جميل ، خال من كل تعقيد ، كان كذلك شوقى يقود حركة جديدة فى شعرنا الحديث ، أساسها المحافظة على تراث الشعر ، مع إخضاعه لعوامل الحياة والعصر وثقافة الإنسانية المتجددة .

وبلغ شوقى فى كل ذلك القمة ولم يستطع شاعر عربى أن يصنع صنيعه ولم يجاره أحد من الشعراء فى شعر الحكمة والوطنية والحرية ، ولا فى شعر الفكرة والطبيعة والحب والوصف ونظم الشعر التاريخى ، وشعر الملاحم والشعر القومى . والشعر الإسلامى ، ونظم القصة الشعرية ، والمسرحية والمسرحية الروائية ، وجدد فى بناء الشعر تجديداً لم يشهده عصر قبل عصره ، وأصبح شوقى على لسان الناس ، وشعره حديث الجماهير .

وفى أحداث الإسلام الكبرى على طول التاريخ ، وفى حوادث الأمم الإسلامية المعاصرة ، كتب شوقى أروع قصائده ، وأنبل أناشيده . . يتحدث عن الأزهر فى قصيدته :

قم فى فم الدنيا وحى الأزهرا — وانثر على سمع الزمان الجوهرا

كما يحدث عن النيل فيقول :

وما هو ماء ولكنه — وريد الحياة وشريانها

تتمم مصر ينابيعه — كما تمم العين إنسانها

وعن حبه لوطنه :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه — نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

ويقول بعد عودته من منفاه فى الأندلس :

ويا وطني لقيتك بعد يأس كأنى قد لقيت بك الشبابا

ويدعو إلى القوة والعلم :

ولكن على الجيش تقوى البلاد وبالعلم يشتد أركانها

ويقول داعيا إلى القوة :

ومن يعدم الظفر بين الذئاب فإن الذئاب به تظفر

ويمجد الشعر ويهتف به :

لم تسر أمة إلى الحق إلا بهدى الشعر أو خطى شيطانه

وتر فى اللهاة ما للمغني من يد فى صفائه وليانه

وهكذا كان شوقى حكمة الأيام ، وتجربة الشعوب ، ووجدان الانسانية ولسان العلم والحضارة والبناء والتقدم ، وكان يعد بحق من أقطاب الشعراء فى العالم العربى ، بل إن بعض النقاد ليتخطى به القرون ، فيصله بأعلام الشعر فى أزهى عصور العربية وأمجدها وأنضرها بيانا .

ولم يعرف شعرنا العربى الشعر التمثيلى إلا على يدى شوقى ورواياته التمثيلية المشهورة ، وما أكثر شعره القصصى والتاريخى ، ووصفه لآثار الحضارة الاسلامية الخالدة . وشعره الاسلامى كله مرحلة متطورة متقدمة فى الشعر العربى الحديث ، بل ثروة للعربية ولغة القرآن الكريم .

وما أكثر ما تحدث شوقى فى شعره عن الإسلام وكتابه ورسوله ولغته وعن تاريخه ومفاخره ، ومآثر خلفائه وأبطاله وأعلامه ، مما دعم به وحدة الشعوب الاسلامية والعربية .

وحسبنا ديوانه الرفيع الذى سماه « دول العرب وعظماء الإسلام » ، ونظمه فى منفاه إبان الحرب العالمية الأولى ، وطبع على حدة بعد وفاته بعام ، وكله من بحر الرجز ، وقد تحدث فيه عن تاريخ الإسلام وبطولات أعلامه الخالدين ، وأعد هذا الديوان ملحمة طويلة كان لشوقى بها فخر الكتابة فى الشعر الملحمى ، وهذه الملحمة وملحمة الشاعر « أحمد محرم » التى سماها « الإلياذة الإسلامية » ونشرت عام ١٣٨٠ هـ : ١٩٦٠ م ، تعدان من أسبق المحاولات فى شعرنا المعاصر لنظم الملحمة الشعرية الطويلة .

وفى هذا الديوان الإسلامى يعظم شوقى من شأن اللغة العربية ، ويدعو الشباب العربى إلى الاعتزاز بها ، وبكتاب العربية الخالد ، والقرآن الكريم وبتراث الإسلام وثقافته ، فيقول :

لسانك الأول فى الكتاب ولغة الصبوة والعتاب
فخض عباب فقهه وسره وغص على صحيحه وحره
لا ترض منه مبلغ الرعاع وحصة الأعمى من الشعاع
واقرأ علوم السلف الأعلام فانها معالم الكلام
رب قديم كشعاع الشمس فلا تقل أبن غد من أمس
وخل مازيفت الليالى ومانفت مصارف الأجيال
ولا تضع فضل الجديد كله يفتك وضع الشىء فى محله
رب قديم عنده المعول ورب كنز لم يثره الأول
إن طريق العقل لايسد ومذهب الأفكار لايحد

وقصيدة شوقى فى هذا الديوان عن البيت الحرام لحن إسلامى رفيع .
وهكذا كل قصائد هذه الملحمة .

لقد احتل شوقى منزلة عالية فى عصره ، وشغل الناس طول عمره ، وانفرد بتاج الزعامة بين الشعراء ، وتسابقت الصحف المشهورة والمغمورة على الكتابة عنه ، وأولاه الناقدون عناية واهتماما لا يعدلها شىء .

أما مكانته فى عصره ومجتمعه فقد كانت فى القمة ، فقد تربى فى قصر الخديوى اسماعيل ، ونشأ على عين توفيق ، وابتعثه إلى فرنسا يدرس الحقوق والآداب ، وعاد من بعثته ، فعينه فى بلاطه موظفا مرموقا فى قصره ، وظل قريباً منه ثم من ابنه عباس الذى زاد فى تقريبه فكان أنيس مجلسه وشاعره الخاص ورئيس إدارة التحرير الأفرنجى أو إدارة الشعبة الأوروبية فى القصر كما تسمى اليوم .

ثم كان أحمد شوقى واحداً من أبرز رجال عصره ، فهو من طبقة قريبة من الخديويين ، وأصدقاؤه وأصفياؤه من الحكام والوزراء ومن رجال الفكر والبيان ، توليه الصحافة اهتمامها ، ويوليه أقطاب البلد وزعماؤه اهتمامهم ، ويجله الكبير والصغير ، ويضعونه فى المحل الرفيع من نفوسهم وقلوبهم .

كان بين الشعراء أميرهم بلا مدافع وشيخهم بلا منازع ، وشاعر العربية الأكبر المجدد ، الذى أعاد لها مجدها ، وأعلى منارها ، ونشر مطوى آدابها ، والذى صدع بالهام الشعر فأتى بالمعجزات الخالدات . شاعر لا كالشعراء ، وكما يقول المثل العربى : ماء ولا كصداء ، ومرعى ولا كالسعدان .

تتلمذ شوقى على البارودى الذى بعث الحياة الأصيلة للشعر العربى ، وحل وثاقه . وفك قيوده ، فتأثر به ونسج على منواله ، وسار على هديه ،

وكان أظهر أعلام مدرسته ، وقرأ شوقى ماشاء له حبه للادب والشعر فى روائع الشعر القديم، وفتنه ابن الرومى وأبو تمام ، والبحترى وأبو فراس والمتنبى وأبو العلاء والشريف الرضى ، ومهيار الديلمى ، وأمثالهم من أمراء البيان والشعر فى كل عصر ، وزاد حظه من الثقافة القديمة والحديثة العربية والغربية ، وأقام فى فرنسا حينا ، وأتيحت له رحلات علمية وغير علمية،هيأت له الاطلاع على حضارات ومدنيات ومشاهد ومعالم ، ويسرت له الاتصال بأدباء وكتاب وشعراء وصحافيى عصره ، فجاء شعره ممثلا لكل التيارات القديمة والحديثة جامعاً لكل المزايا الأدبية الفنية المتفرقة فى غيره يحكى فى أسلوبه ديباجة البحترى ، وفى معانيه حكمة المتنبى ، وفى موسيقاه أنغام الرضى . فكان الرائد الثانى بعد البارودى لمدرسة البعث .

نفذ فكره إلى المعانى القديمة والجديدة فاختار منها ماشاء ، وطعمه الخيال الغربى بألوان جميلة ، فحلق فى كل جو ، وسطع فى كل أفق ، واستخرج من الشعر العربى أروع ألحانه ، فكان شعره أعلى طبقة ،وأرجح وزنا من شعره شعراء عصره .

هيأت له ثقافته الواسعة وشاعريته الفذة أن يثري الشعر العربي إثراء كبيراً وأن يجدد من أغراضه ، فابتكر الشعر الملحمى بقصائده التاريخية المطولة ، وبقصيدته فى دول العرب وعظماء الإسلام ، وقد طبعت فى كتاب على حدة ، ونظم لأول مرة الشعر التمثيلى برواياته الذائعة المشهورة ، فكانت فتحاً جديداً فى الشعر العربى والحديث ، ولم كلا لأوتار كانت ناقصة ، وتكذيباً لدعوى قصوره فى ميدان الشعر القصصى والشعر التمثيلى .

وصار شوقي أميراً للشعراء بأصالته الشعرية وطاقته الكبيرة الخلاقة وانفراده بالتجديد في ألوان مختلفة من الأساليب والمعاني والأخيلة والأغراض وبشعره التمثيلي والملحمي . وتناوله للآثار المصرية ومشاهد الطبيعة المصرية بالتصوير الفني البديع ، وبسموه بالمعاني الخاصة عن المعاني الرخيصة في وزن موسيقي رائع .

صار شوقي بذلك كله سيد أدباء عصره وأرفعهم منزلة . وقد اجتمع شعراء عصره عام ١٩٢٧ م من جميع أنحاء العالم العربي ، وأقاموا له مهرجانا استمر أسبوعا . وحضره بعض المستشرقين ، وبايعوه بإمارة الشعر ، وتقدم حافظ إبراهيم نده ومعاصره وأنشد قصيدته المشهورة التي منها :

أمير القــوافي قد أتيت مبايعاً
وهذي وفود الشرق قد بايعت معي

وأما النقاد فقد أولوه اهتمامهم ، وتناولوه بدراساتهم الطويلة ، ورفعه أكثرهم مكانا عليا في سماء القريض :

فريق منهم جعله « شاعر العربية جمعاء في حاضرها وماضيها قديمها الغابر وحديثها القائم » ، بل جعله فلتة في تاريخ الشعر العربي كله جاد بها الزمان . . « وإن الزمان بمثله لبخيل » يرى أن مكانه بين الشعراء في كل العصور العلم الذي لا يطال ، والنجم الذي لا ينال ، لأنه كان عبقرية نادرة .

وفريق يرى أنه ألمع شاعر في تاريخ أدبنا الحديث ، كما أن المتنبي كان ألمع شاعر في عصره ، ويقولون : « إن شوقيــاً متنبي العصر الحديث » ويوازنون بينهما موازنات كثيرة .

وفريق يرى أنه رائد الشعر الحديث بعد محمود سامى البارودى .

على أن هنـاك بعضاً من النقاد — الذين يرون فى كل جديد خروجا على المألوف يجب وقفه — هاجموه تحاملا ، وتطاولوا عليه تزمتا ، ولـكن ما لبثوا أن خفت صوتهم ، ومضى شوقى فى طريقه دون أن يستطيعوا صده أو ينزلوه عن مكانه .

وحاول بعض الشباب فى ذلك الوقت أن يصعدوا على أكتافـه ابتغاء الشهرة ، وكانوا قـد تأثروا بالثقافـة الغربيـة وبالشعر الأوربى تأثرا خالصاً ، فاتهموا شعره بالخلو من الوحدة العضوية للقصيدة ، وبالخلو من وصف خلجات الشاعر ومشاعره ووجداناته المتميزة ، وعدوه مقلدا ، ولم يعتبروه ذا شأن فى الشعر ، ومن هؤلاء : العقـاد ، والمازنى ، وشكرى ، فقـد نفسوا عليه مكانته ، وأرادوا الوصول إلى دنيا الشهرة بمهاجمته ، فحاولوا هدمه ، ولـكن معاولهم كانت أضعف من أن تحطم صرحه المشيد .

ومهما كان فإن أحمد شوقى قد احتل بشعره أرفع منزلة تخيلها شاعر فى العصر الحديث ، وكان شعره تعبيرا من النسق الأعلى عن أحداث عصره ومجتمعه وبيئته ، وحديثا عذبا عن الإسلام وحضارته وآثارها فى الأندلس ونشيداً لآلام وآمال أمته العربية فى الحرية والاستقلال .

ومن شعر أمير الشعراء أحمد شوقى فى حب الوطن :

عصفورتان بالحجا ز حلتا على فنن
فى خامل من الريا ض لا ند ولا حسن
بينا هما تنتجيا ن سحرا على الغصن
مر على غصنيهما ريح سرى من اليمن
حيا : وقال : درتا ن فى وعاء ممتهن
لقد رأيت حول صنـ ـعاء وفى ظل عدن
خمائلا كأنها بقية من ذى يزن
الحب فيها سكر والماء شهد ولبن
لم يرها الطير ولم يسمع بها إلا افتتن
هيا اركبانى نأتها فى ساعة من الزمن
قالت له إحداهما — والطير منهن الفطن —
ياريح ، أنت ابن السبيـ ـل ما عرفت ما السكن ؟
هب جنة الخلد اليمن لا شىء يعدل الوطن

وفى هذه الشوقية النادرة — التى لم تحفظ فى ديوان أمير الشعراء — يتحدث شوقى عن حب الوطن ، حديثا كله تصوير جميل ، وفن قصصى رفيع . وبهذا البيان كان شوقى يصوغ شعره ، حريصا على عمود الشعر ، مجددا فى تقليده ، عاملا على ذيوعه ، وانتشاره على ألسنة الجماهير ، ليصبح غناءهم وغذاءهم ، ومجدد قوتهم وبنائهم الروحى والفكرى .

وماذا نجد فى هذه القطعة الشعرية الجليلة ؟ جلال الفكرة ، وبساطة الأسلوب ، وقوة العاطفة ، وروعة الخيال ، وجمال الحوار وخفته ، وهى كلها خصائص لأكثر شعر شوقى ، وهكذا كان فى طور ابتداعه وتجديده للشعر يكتب قصيدته .

وهذه شوقية أخرى لم ترد فى ديوان شوقى ، وقد عثرت عليها ، فيما عثرت عليه من قصائد مجهولة لأمير الشعراء . . ويخاطب فيها شوقى الشباب ، ويحبب إليهم التعاون والاقتصاد ، وجمع التبرعات لأجل تصنيع الوطن ، وبناء النهضة ، وقد كتبها شوقى والمحتل فى عنفوانه وقوته وبطشه ، وقال فيها موجها حديثه إلى الشباب :

لا يقيمن على الضيم الأسد	نزع الشبل من الغاب الوتد
كبر الشبل وشبت نابه	وتغطى منكباه باللبد
اتركوه يمش فى آجامه	ودعوه عن حمى الغاب يذد
واعرضوا الدنيا على أظفاره	وابعثوه فى صحاراها يصد
فتية الوادى عرفنا صوتكم	مرحبا بالطائر الشادى الغرد
هو صوت الحق لم يبغ ولم	يحمل الحقد ولم يخف الحسد

ثم يقول :

البنـــون استنهضوا آباءهم
ودعا الشبل من الوادى الأسد

أيها الجيل الذى نرجو لغـد	غدك العز ودنيـاك الرغد

أنت فى مدرجة السيل وقد ضل من فى مدرج السيل رقد
قدت فى الحق فقد فى مثـله
من نواحى القصد أو سبل الرشـد
عـلم الآباء واهتف قائلا أيها الشعب : تعاون واقتصد
رب عام أنت فيــه واجــد فادخر فيــه لعام لا تجد

شوقى وإمارة الشعر العربى

كان أمير الشعراء أحمد شوقى شاعر مصر والعروبة والإسلام . وإذا كان رواد النهضة الأدبية الحديثة فى القرن التاسع عشر : من مثل : أمين الجندى ، وعلى الليثى ، وناصيف اليازجى ، وعبد الغفار الأخرس ، ونجيب الحداد ، وإبراهيم الأحدب ، ومحمود سامى البارودى ، وخليل الخورى اللبنانى ، وسواهم . . قد رفعوا لواء الأدب العربى بعد ما كان عليه من ضعف فى عصر الانحطاط ، فنزعوا عن الشعر أطماره البالية ، وألبسوه حللا قشيبة من البيان والمعانى الجديدة . . فإن أمير الشعراء أحمدشوقى ومدرسته قد نهضوا به نهضة كبيرة ، وجعلوا من الشعر العربى فناً جديراً بخطره وبتاريخه العريق . .

وكان شوقى صناجة العرب ومصر والإسلام فى العصر الحديث ، كما كان الأعشى صناجة العرب فى العصر القديم .

وكان شوقى ذا عقل كبير تفيض منـه الحكمة ، وقلب مفتوح يشع منه الحب ، وخيال لطيف خصب يصور آلام العرب وآمالهم ، وحاضرهم

وماضيهم ، أبدع تصوير ، إذ كان أنضج شعراء طبقته ، وأدقهم تعبيراً ، وأبدعهم بياناً ، وأكثرهم افتناناً ، فى أغلب أغراض الشعر ومنازعه . .

وكان شوقى أشعر شعراء عصره ، من أمثال الرصافى والزهاوى والكاظمى وبشارة الخورى ، وفخرى البارودى وخليل مردم ، وفؤاد الخطيب ، وشكيب أرسلان ، وسليمان البارونى ، وأحمد رفيق المهدوى ، وحافظ إبراهيم وخليل مطران واضرابهم . .

وقد أدخل شوقى الشعر المسرحى إلى الأدب العربى ، فكتب رواياته التمثيلية . . كليوباترا ، ومجنون ليلى ، وقمبيز ، وغيرها ، وكتب الشعر الإسلامى والقومى والوطنى ، وجدد فى فنون الشعر وأغراضه ومعانيه وأخيلته وصوره .

وفى عام ١٩٢٧ عقد فى مصر مهرجان شعرى كبير لتكريم شوقى اشترك فيه كثير من شعراء مصر وأدبائها وعلمائها ونقادها ، وحضر إليه عدد غير قليل من شعراء وأدباء الأقطار العربية ، حيث بايعوا أحمد شوقى بإمارة الشعر ، وسلموه لواءه . . ومنذ ذلك الحين صار لقبه أمير الشعراء . . .

وعاش شوقى ما عاش مبجلا ، عالى الاسم ، رفيع المنزلة ، ذائع الشهرة ، إلى أن توفاه الله إلى رحمته ، وخلا ميدان الشعر منه ، ولم يطمع أحد فى أن يلقب لقبه ، لأن شوقيا استحق اللقب بعبقريته وشاعريته ، وإجماع الشعراء العرب على مبايعته أميراً للشعر والشعراء ، وكان شوقى جديراً بكل ذلك ، فقد كان شاعراً بأجمع معانى الكلمة ، يكلف بفنه إلى حد الافتنان ،

بل إنه ليكاد يرى الرجل كل الرجل لا يتمثل إلا فى الشاعر ولا يرى للحياة كل الحياة فى جميع صورها غاية إلا قرض الشعر ، ويعبر عن اعتزازه بالشعر وبشاعريته بقوله :

جاذبتني ثوبى العصى وقالت : أنتم الناس أيها الشعراء

وقد كان إلى هذا شديد التمكن من نفسه وفنه ، حتى لا يرى فى الدنيا شاعراً يباريه أو يتعلق بغباره .

وقد قال حافظ إبراهيم فى مبايعته :

أمير القوافى قد أتيت مبايعاً وهذى وفود الشرق قد بايعت معى

وكان حافظ يقول : والله إن شوقى لشاعر ، وإنه لأشعر منى ، وما كفرت بهذه الحقيقة فى شبابى ولا فى كهولتى ، ولا أريد أن أكفر بها فى شيخوختى ، وأود أن يعرفها الناس بعد مماتى » .

وكان شوقى صاحب بيان نضر الله به وجه الأدب ولغة العرب ، وحفظ به تراث الإسلام والمسلمين . وكان صوتاً قوياً من أصوات العروبة ، وسيفاً مجلوا ينتضى للذياد به عن حمى العرب ، وللدفاع به عن حياض الاسلام ، وعن تاريخ العرب ومآثرهم ومفاخرهم ، وعن كتاب الإسلام الخالد ، ولغته الفصحى .

وإذا كان شوقى قد لقى ربه ، فقد خلفته شعراء أعلام فى مختلف أنحاء العالم العربى . وفى مقدمتهم :

١ – من مدرسة الديوان : روادها الثلاثة ، شكرى والعقاد والمازنى .

٢ — ومن مدرسة أبولو : أبوشادى ، وإبراهيم ناجى وعلى محمود طه وصالح جودت وآخرون .

٣ — ومن مدرسة المهجر الشمالى جبران وأبو ماضى وميخائيل نعيمة .

أما شعراء المهجر الجنوبى ، فمنهم : الشاعر القروى وإلياس فرحات وشفيق معلوف . . وغيرهم .

٤ — وفى العراق شعراء كثير من بينهم الرصافي والزهاوى .

٥ — وفى لبنان : بشارة الخورى .

٦ — وفى سوريا : شفيق جبرى وخليل مردم وعمر أبو ريشة .

٧ — وفى السعودية : حمزة شحاته وإبراهيم هاشم الفلالي ، وعبد الله ابن خميس .

٨ — وفى تونس : الشابى والحليوى .

٩ — وفى السودان : البنا والعباسى والتيجانى بشير . . وغيرهم .

ومع ذلك كل لم يطمع واحد من هؤلاء ولا من غيرهم فى إمارة الشعر ، ولم يسع أحد من الجماهير العربية لترشيح واحد من هؤلاء ولا من سواهم أميراً للشعراء .

قيل إن إمارة الشعر العربى انتهى أمدها . والشعر ليس له دولة ، وليس للشعراء أمير ، ولا يقبلون أن ينصب أمير عليهم .

وقيل : إنه ليس هناك عبقرية تضارع عبقرية شوقى حتى يصبح صاحبها

أميرا للشعراء ولما مات وكان حافظ قد رحل قبله بقليل إلى عالم الخلود كتب د. طه حسين يقول : إن إمارة الشعر قد انتقلت بعد وفاة شوقى وحافظ إلى العراق لأن الزهاوى والرصافى كانا فى عالم الأحياء . .

ولقد هاج هذا القول أدباء لبنان ، وكتب أحدهم مقالا انتقد فيه رأى طه حسين أشد الانتقاد ، وقال : كيف تنتقل إمارة الشعر إلى العراق وفى مصر مطران . . فرد الدكتور طه على هذا الانتقاد بأن مطران يختلف شعره عن شعر شوقى وحافظ ، وأن مذهبه فى الشعر يباين مذهبيهما فيه ، فمن الطبيعى ألا يكون خلفاً لشوقى فى إمارة مذهبه .

وفى رأيى أن الشعر فى مختلف عصوره قد تزعمه أمير ، وإن لم يلقب بلقب الإمارة . ولم يصعد إلى عرش القريض :

امرؤ القيس كان أميراً للشعراء فى العصر الجاهلى .

وحسان بن ثابت كان أميراً للشعراء فى عصر المخضرمين .

وجرير والفرزدق تنازعا إمارة الشعر فى العصر الأموى .

وبشار وأبو نواس ومسلم وأبو العتاهية وأبو تمام والبحترى والمتنبى وأبو العتاهية ، كل منهم كان أمير الشعر فى زمنه ، وكذلك ابن زيدون وابن خفاجة فى الأندلس .

وكثير من النقاد كانوا يرشحون فى كل عصر ثلاثة شعراء لزعامة الشعر فيه :

امرؤ القيس وزهير والنابغة فى العصر الجاهلى .

حسان وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة فى عصر المخضرمين .

جرير والفرزدق والأخطل فى العصر الأموى .

وهكذا بشار وأبو نواس ومسلم فى القرن الثانى .

وأبو العتاهية وأبو تمام والبحترى فى القرن الثالث .

ابن الرومى وابن المعتز وخالد بن يزيد فى القرن الثالث أيضاً .

المتنبى وأبو فراس والشريف الرضى فى القرن الرابع .

مهيار وأبو العلاء وابن سنان فى القرن الخامس ،

ابن زيدون وابن خفاجة وابن هانىء فى الأندلس .

شوقى وحافظ ومطران فى العصر الحديث ، فلقب أمير الشعراء كان موجوداً فى الواقع ، فى العصور القديمة ، وإن لم يكن لقبا رسمياً يلقب به شاعر بعينه ، أو شعراء بأعينهم .

وفى عصرنا اليوم يعيش بيننا شعراء مبدعون فى مختلف أنحاء العالم العربى يمكن أن نقول: إن منهم رواداً ومبدعين وأعلاما ، وإن منهم من هو جدير بأن يكون أميراً لشعراء عصره .

وأمير الشعر الذى يمكن أن نقول عنه إنه أمير شعراء عصره هو فى رأيى . . . من يجمع بين الأصالة والمعاصرة وروح التجديد وعبقرية الشاعر .

يستلهم التراث ، ويحافظ على قيم الشعر الفنية الرفيعة ، ويعبر عن عصره تعبيراً صادقاً وأميناً ، مع ظهور شخصيته ووضوح مظاهر الابداع والتجديد فى شعره ، شكلا ومضمونا وموسيقى وخيالا وفكراً .

أمير شعراء العصر هو الذى يجيد التعبير عن أزمات العصر ، وآمال الجماهير وآلامهم ، وعن أحلام البشرية فى حضارة إنسانية رفيعة القيم ، نبيلة المثل ، عزيزة الروح ، قوية الشعور ، باللغات المعروفة لبنى الانسان .. حضارة تنبني على الحب والايثار والخير والشعور بالمسئولية ، والايمان بحقوق الانسان .

إن شاعر العصر هو حكيمه وفيلسوفه ومصلحه فى آن واحد . .

والبشرية تكشف يوما بعد يوما عن حاجتها إلى الشعر ليقر رموز الحياة ، ويبعث فى الناس روح العزاء والاحتمال والطموح . كما يقول الناقد الإنجليزى ماثيو أرنولد .

إن الشعر حقا هو الحلم الجميل الممتع الذى يرى الحياة بوجه جديد . . الشعر هو التصوير الواضح للحياة كما يراها الشاعر ، وكما يجب أن يراها . وفى هذا التصوير تفسير للحياة ، وتعبير عن الإحساس بالجمال فى مختلف مشاهده وصوره .

حافظ إبراهيم شاعر النيل

٤ فبراير ١٨٧٢ — ٢١ يوليو ١٩٣٢

فى الواحد والعشرين من يوليو ١٩٣٢ مات شاعر النيل ، حافظ إبراهيم ؛ فبكاه الشعب وهو فى أعظم مراحل نضاله الوطنى ضد الاحتلال والقصر ، وطوى بموته أعلى صوت وطنى عرفته مصر من فوق منبر الشرق ، كما قالت مجلة أبوللو فى عددها الخاص الذى صدر فى الذكرى الأولى لوفاته فى يوليو ١٩٣٢ ، وكان حافظ لسان العصر الذى عاش فيه ، وصوت الشعب الذى أنجبه ، كما قال المازنى فى كلمته فى الذكرى .

وحقا كان حافظ شاعر النضال الوطنى فى الثلث الأول من القرن العشرين ، بل كان هو مصر الثائرة ، كما كان مصر الشاعرة . وليس بالقليل أن يصبح شاعر لسان أمته ، والهاتف بنجوى روحها ، وبسر ضميرها ، والمصور لأفراحها وأحزانها ، ولآمالها وآلامها ، فى نزاعها نحو الحرية وطلب الاستقلال .

وكانت هذه الفترة أحرج مراحل حياة حافظ ، الذى ولد فى ديروط فى ٤ فبراير ١٨٧٢ ، وذاق مرارة اليتم ، إذ توفى والده وهو ابن عامين ، ثم شاهد هزيمة الثورة العرابية ومأساة احتلال انجلترا لوطنه ، وهو فى العاشرة من عمره ، وقضاء الاحتلال على كل الأحرار والوطنيين فى مصر وحين تخرج فى المدرسة الحربية وعمل ضابطا فى السودان ، أصبحت تؤرقه غطرسة الضباط الانجليز ، وسيطرتهم الكاملة على الجيش المصرى المظلم ،

وإذلالهم للعناصر الوطنية الثائرة فيه، وعاد حافظ إلى الجيش بعد أن عفا عنه الخديوى ، ولكنه لم يلبث أن فصل لأنه من دعاة الحرية ، ومن مدرسة الامام محمد عبده .

وبعد قليل توفى البارودى أحد زعماء الثورة العرابية عام ١٩٠٤ ، ثم الامام محمد عبده فى يوليو عام١٩٠٥ ، فبكاهما الشاعر والشعب، ثم كانت دنشوى ، فكتب حافظ فيها قصائده الوطنية الملتهبة ، وبعد قليل وفى عام ١٩٠٨ توفى الزعيم الوطنى مصطفى كامل ، فرثاه الشاعر بمراث بليغة ، وظل يعيش على الكفاف حتى بلغ الأربعين ، إلى أن كللت مساعى سعد — وهو من زملاء حافظ فى مدرسة الامام — بالنجاح ، والتحق الشاعر بوظيفة فى دار الكتب المصرية عام ١٩١١ ، وظل فيها عشرين عاما حتى أحيل إلى المعاش فى أوائل عام ١٩٣٢ ، وبعد عدة شهور وافاه الأجل فى ٢١ يوليو ١٩٣٢ ، وبلا ريب كانت الوظيفة قيداً للشاعر يحد من حريته ، ويحول بينه وبين آمال الوطن والشعب فيه .

* * *

صور حافظ فى شعره بؤسه وهمومه وصار يردد مثل قوله :

سعيت إلى أن كدت أنتعل الدما

وعدت وما أعقبت إلا التندما

وأسى لوطنه وللحرية المكبوتة فيه :

إذا نطقت فقاع السجن متكئى

وإن سكت فإن النفس لم تطب

أيشتكى الفقر غادينا ورائحنا ونحن نمشى على أرض من الذهب

ويكتب حافظ قصائده الوطنية فى دنشواى ، حيث تهزه المأساة ، فيصرخ فى وجه الاحتلال :

ليت شعرى : أتلك محكمة التفتيش

عادت ، أم عهد نيروون عادا ؟

ويؤكد حق أمته فى الحرية والحياة :

إذا الله أحيا أمة لن يردها إلى الموت قهار ولامتجبر

ويبكى زعماء وطنه : البارودى ، ومحمد عبده ، ومصطفى كامل ، وكان مشهورا بجودة الرثاء ، لايبذه فيه شاعر آخر من معاصريه .

وفى ثورة الأمة عام ١٩١٩ نظم قصيدته فى مظاهرة النساء ، ثم كتب قصيدته مصر ، وصار حافظ شاعر الوطن والشعب ، وأصابت صحيفة الأهرام حين لقبته : شاعر النيل ، وأقر النقاد والكتاب والشعراء هذا اللقب ، إذ صار شاعر الحياة القومية بمثل : قصائده عن اللغة العربية ، وعن الحجاب والسفور ، وعن أزمات المال والسياسة ومضاربات الأعيان فى سوق القطن ، ونهب الأجانب لثروات البلاد ، وفى الدعوة إلى بعض المشاريع الاجتماعية الشعبية . بل اتسعت دائرة وطنيته ، فشملت العروبة فى مثل قصيدته « سورية ومصر » ، بل الشرق كله كما فى قصيدته « أنا يابانية » . بل كتب شعراً إنسانياً رفيعاً كقصيدته فى حريق ميت غمر ، وقصيدته فى زلزال مسينا .

وأصبح حافظ — بسبب من ذلك كله — يعتلى ذروة الشعر العربى

الحديث ، هو وشوقى ، حتى ليقول د. أحمد زكى أبو شادى : إن اسم حافظ لن ينسى فى تاريخ الشعر العربى ، وأعلى هيكل وشكرى ومطران وطه حسين وشوقى ضيف والسحرتى والعقاد وأكثر النقاد من منزلته فى الشعر الحديث ، بل صار يعد زعيما من كبار الزعماء الوطنيين المخلصين ، يتغنى الشعب بشعره ويفضله على سائر الشعراء ، كما قال بعض أدباء جيله من قبل ، واجتمع لحافظ من متخير القول ، ومصفى الكلام ، شعرا ونثرا ، مالم يجتمع لشاعر ، ويساويه نقاد بشوقى وآخرون يعلون من منزلة شوقى ، ويقولون ماقاله الزيات بأنه كان شاعر القريحة وشوقى شاعر العبقرية ، أو ماقاله د. على العنانى بأن (شوقى) كان منحة أجيال ، أو ماقاله د. أحمد ضيف بأن (شوقى) حمل لواء الشعر أربعين عاما والشعراء العرب يسيرون وراءه فى جميع الأقطار العربية ، أو ماقاله شيخ العروبة أحمد زكى باشا بأنه يحق للجيل الحاضر أن يفاخر الأجيال الحاضرة والآتية بأنه حاز الشرف الأكبر بظهور أمير الشعراء فيه ، وفى ذلك مافيه من معانى المجد الدائم لمصر فى هذا العصر (الأهرام ٥ ديسمبر ١٩٣٢) أو ماقاله على محمود طه بأن الجيل كله نبه باسم شوقى ، وعقد شعره على جبين مصر تاج الزعامة فى الشعوب العربية ، وان كنت أذهب إلى أنهما كانا كفتى ميزان : فلحافظ شعره الوطنى والاجتماعى والملحمى ومراثيه وشكواه للزمان ، ولشوقى شعره الوصفى والإسلامى والمسرحى والتاريخى وحافظ أجزل لفظا وأسلوبا ، وشوقى أعلى خيالا وتصويرا .

لقد بزغ نجم حافظ بعد وفاة البارودى فى زمن تألق فيه نجم شوقى وصبرى وشكرى ومحرم ومطران وشعراء آخرين فتصدر الميدان وحاز قصب الرهان فى كثير من الأحيان .

وفجأة مات حافظ ، فبكاه الشعب وشعراء مصر والعالم العربي ، وانتظر الناس مرثية شوقي ، ولاذ شوقي بالصمت ، ومضت الأيام ، وتحل ذكرى الأربعين ، فتدعو « رابطة الأدب الجديد » لتأبين حافظ في نادى الجامعيين شارع الساحة في القاهرة ، ويحتل بوليس حكومة صدقي المكان ، ويمنع الجماهير من الدخول إليه . ومن أجل ذلك بادر د. هيكل بإصدار عدد خاص من « السياسة الأسبوعية » في ٢ سبتمبر ١٩٣٢ ووقفه على رثاء حافظ . ودعت « رابطة الأدب الجديد » إلى مهرجان لتأبين حافظ في الاسكندرية ، بالمشاركة مع « جمعية أبولو » وكانت مفاجأة الشعب والصحافة مرثية شوقي لحافظ :

قد كنت أوثر أن تقول رثائي ... يا منصف الموتى من الأحياء
أ نظار فأنت كأمس شأنك باذخ ... في الشرق ، واسمك أرفع الأسماء

* * *

وبعد نحو ثلاثة شهور ، وفي يوم الخميس ١٣ جمادى الثانية ١٣٥١ هـ — ١٣ أكتوبر ١٩٣٢ م فجأة ، يموت أمير الشعراء أحمد شوقي فيهتز العالم العربي لوفاته ويبكيه أحر بكاء . وتؤبنه الدولة والعرب في مهرجان أدبي كبير في دار الأوبرا المصرية في مساء يوم الأحد الرابع من ديسمبر ١٩٣٢ ، وبعد ذلك بنحو خمس سنوات أبنت الدولة حافظا في مهرجان مماثل عقد في دار الأوبرا في ٢٤ من ذى الحجة ١٢٥٥ هـ السابع من مارس ١٩٣٧ .

ومن العجيب أن تكون قصة أميري الشعر في العصر الحديث حافظ وشوقي في وفاتهما في عام واحد ، وأن الثاني مات بعد الأول بثلاثة شهور

وأنه تأخر فى رثاء زميله أكثر من شهر ، هى قصة أميرى الشعر فى العصر الأموى: الفرزدق وجرير. فلقد مات الفرزدق فى عام ١١٠هـ — أكتوبر ٧٢٩م وصمت جرير ، وبعد أكثر من شهر من وفاة الفرزدق منافسه الأكبر فى إمارة الشعر العربى رثاه بقصيدة منها :

لعمرى لقد أشجى (تميما) وهدها
على نكبات الدهر موت الفرزدق

لقد غادروا فى اللحد من كان ينتمى
إلى كل نجم فى السماء محلق

عماد تميم كلها ولسانها
وناطقها البذاخ فى كل منطق

فتى عاش يبنى المجد تسعين حجة
وكان إلى الخيرات والمجد يرتقى

وبعد أقل من شهرين توفى جرير .. رحمهما الله .

— ٢ —

وقبيل وفاة حافظ إبراهيم شاعر النيل بنحو شهرين ، نشرت له بعض المجلات الأدبية فى القاهرة قصيدة جديدة ، رائعة ، فى مضمونها وعاطفتها ، لم تظهر ، فى ديوان حافظ حتى اليوم[1] ، وعنوانها « وداع الشباب » ، وكان

---

(١) من القصائد التى لم تظهر فى ديوان حافظ : مرثيته للمنفلوطى وقد نشرت فى صحيفة البلاغ عدد ١٩٢٤/٨/٢٦ — وكذلك مرثيته للشاعر عبد الحليم حلمى المصرى (— ١٩٢٢) وهى منشورة جريدة الأخبار عدد ١٩٢٢/٨/٢ ، ومطلعها :

غاب نجم عن عالم الأدب الشر   قى واندك منه ركن ركين

حافظ يقيم سنى صباه فى دار منعزلة بين المروج والمزارع بناحية الجيزة ، ولكنه تحول عنها لضرورة الحياة ، فسكن فى دار غيرها ، وفى حى غير حيها ، ولبث أعواما لا يرى داره القديمة ، ولا يعرف ما فعلت بها الأيام ، وبعد طول العهد مر بها فتنكرت له معالمها ، إذ قامت حولها دور « شامخة » ، وقصور « باذخة » ، وذهب عنها رداء البساطة ، الذى كان سر أنسها ، وحلاوة بهجتها ، والروح الذى تصل بينها وبين نضارة الحقول التى كانت محيطة بها ، والتى ازورت عنها ، فأسند الشاعر ظهره إلى جدار مسجد أمامها ومرت به ذكريات الصبا الذى قضاه فيها ، فلبث طويلا وهو يبكى ، وينشد ما جاشت به فى هذا الموقف الرهيب شاعريته ، وما ألهمته إياه عاطفته الحزينة الباكية ، وقال :

كم مر بى فيك عيش لست أذكره
ومر بى فيك عيش لست أنساه

ودعت فيك بقايا ما علقت به من الشباب وما ودعت ذكراه

أهفو إليه على ما أقرحت كبدى
من التباريح أولاه وأخراه

لبسته ودموع العين طيعة والنفس جياشة والقلب أواه

فكان عونى على وجد أكابده ومر عيش على العلات ألقاه

إن خان ودى صديق كنت أصحبه
أو خان عهدى حبيب كنت أهواه

قد أرخص الدمع ينبوع الغناء به والهفتى ونضوب العيش أغلاه

كم روح الدمع عن قلبي وكم غسلت
منه والسوابق حزنا في حنـاياه

لم أدر ما يده حتى ترشفه فم المشيب على رغمي فأفناه

قالوا : تحررت من قيـد الملاح فعش
حراً ، ففي الأسر ذل كنت تأباه

فقلت : ياليته دامت صرامته ما كان أرفقه عندي وأحنـاه

بدلت منه بقيد لست أفلته وكيف أفلت قيدا صاغه الله

أسرى الصبابة أحيـاء وإن جهدوا
أما المشيب ففي الأموات أسراه

وبمثل هذه العاطفة الحارة ، والأسلوب القوى ، والبلاغة الطيعة ، والروح الجياشة ، كان حافظ إبراهيم يكتب شعره .

وقد عاش يحس الحياة بأعصاب مشدودة عارية ، وكان همه أن يتلقى بهذه الأعصاب الحساسة وقع الحياة . ثم ينقلها إلى الناس مصورة في شعر جزل رصين سهل الورود على الأذن سريع النفاذ إلى القلب ، وكان يرسل نفسه على سجيتها بلا تكلف ، ولا تعمل ، لا يتصيد النافر من المعاني ، ولا يحاول الإغراب في لفظ أو فكرة ، وإنما دأبه أن يخاطب القلوب من أقرب طريق ، وكان إلى هذه البساطة ، التي امتاز بها في نفسه وشعره ، صادق السريرة ، جم الاخلاص ، محبا للصداقات ، وفيا للمودات .

وكانت حياته طيلة ثلاثة وستين عاماً هجرياً حياة كفاح ، يتم في الطفولة ، وحياة بائسة في الصغر ، ينتقل فيها من كتاب إلى مدرسة ،

ومن القاهرة إلى طنطا ، حيث كان يقيم فى كفالة خاله ، ثم عمل فى المحاماة ، وتردد على مجالس علماء الأزهر فى الجامع الأحمدى ، ثم دخل المدرسة الحربية ، وتخرج بها ليعمل فى السودان . ثم فصل من خدمته لصلته بالامام الشيخ محمد عبده ، وظل حافظ بجانب البارودى حتى ماته عام ١٩٠٤ ، وبجوار الإمام عبده حتى توفى عام ١٩٠٥ ، وتوثقت صلته بتلامذه الإمام محمد عبده ، ومن بينهم سعد زغلول ، وحشمت باشا وزير المعارف المصرية ، الذى عينه عام ١٩١١ ميلادية فى القسم الأدبى بدار الكتب المصرية ، حيث ظل حافظ فى هذه الوظيفة ، حتى توفى عام ١٣٥١هـ/١٩٣٢ م .

وفى هذا العام يكون قد مضى على وفاة حافظ أربع وخمسون عاما هجريا .

وكان حافظ يكتب شعره فى الجانب الإسلامى ، ينظم القصائد الطوال فى الذكريات الاسلامية الكبرى ، يستقبل ميلاد كل عام هجرى جديد بإحدى روائعه ، وكان الامام محمد عبده يذكى فيه هذا الروح ، إذ كان لا يجد أجدى فى مقاومة المحتل من بث الروح الاسلامى فى النفوس ، ونشرها فى الصدور والقلوب . وعمرية حافظ ، وهى قصيدته الطويلة فى سيرة عمر بن الخطاب ، مثل من الأمثلة على شعره الاسلامى الرفيع المنزلة فى البلاغة .

ولم ينس حافظ أن يتحدث عن مصر وتاريخها القديم فى شعره ، وقصيدته المشهورة عمر ، فيها روح حافظ وعاطفته نحو وطنه ، وفيها يقول :

وقف الخلق ينظرون جميعاً   كيف أبنى قواعد المجد وحدى

ثم يقول :

أى شعب أحق منى بعيش
وارف الظل ، أخضر اللون رغد ؟
قربوا بى مناهل العز حتى
يخطب النجم فى المجرة ودى
وارفعوا دولتى على العلم والأخـ
ـلاق ، فالعلم وحده ليس يجدى

ويقول :

نحن نجتاز موقفا تعثر الآ   راء فيه وعثرة الرأى تردى
فقفوا فيه وقفة الحزم وارموا   جانبيه بعزمة المستبد
واستبينوا قصد السبيل وجدوا   فالمعالى مخطوبة للمجد

وهى دلالة قوية على نسجه الشعرى الرفيع ، وصناعته الجميلة الباهرة ، وديباجته القوية الأخاذة .

وكان حافظ إبراهيم مشهورا بديباجته ، والنقاد والأدباء والشعراء يحبون فى شعره هذه الديباجة الجميلة ، التى تتمثل فى جزالة ألفاظه ، وصناعته الشبيهة بصناعة البحترى وأبى تمام ، محافظا على عمودية القصيدة وصياغتها القديمة ، حتى قال شوقى من قصيدته فى رثاء حافظ ، ينوه بشعره وشاعريته :

مازلت تهتف بالقديم وفضله حتى حميت أمانة القــدماء
جددت أساوب الوليد ولفظه وأتيت للدنيا بشعر الطائى

يقول : إن شعر حافظ جمع إلى بلاغة أسلوب البحترى روعة معانى أبى تمام ، وإن كان حافظ يترك الجزالة إلى العذوبة فى أحيان كثيرة .

وكان حافظ فى الطليعة من شعراء العصر ، وقد سار فى نطاق البارودى ومذهبه فى الشعر ، وتقيل طريقته منـذ أن تفتحت أكمام شاعريته ، فتأثر بما استظهره من الشعر الرصين ، ثم ابتـكر فى شعره نهجا تميز به عمن يعاصرونه من الشعراء ، أسلوب ساحر ، ومعنى جميـل ، وعذوبة ألفاظ ورشاقة عبارة وخفة موسيقى وروح ، وتجاوب وثيق بين المعنى والمبنى .

كان فى شعره من موسيقى البحترى ، وأسلوب الشريف الرضى ، وحلاوة مهيار ، ونسج البارودى ، كثير من الخصائص الفنية ، التى يعرفها فى شعره النقاد .

ولم يكن هو ولا شعره بخافيين على أحد ، وكانت قصائده تسير فى كل أفق ، ويشدو بها كل إنسان ، وكان لشعره صـلة بالقلب ، ومودة فى النفس ، يدخل إلى الوجدان بلا استئذان كما يقولون ، وكأنه أصداء موسيقى قوية تلزمك أن تنصت لنغمتها . وأنت مأخوذ بحلاوتها وروعتها .

وفى عام ألف وتسعمائة وثلاثة ميلادية نشر حافظ إبراهيم قصيدته « اللغة العربية تنعى حظها بين أهلها » ، وقد أحدثت هذه القصيدة دويا

شديدا ، لأنها كانت رداً عنيفاً على أعوان الاحتلال ، الذين أخذوا يرددون الكتابة حول وجوب إحلال العامية محل العربية ، وفى هذه القصيدة يقول حافظ :

رجعت لنفسى فاتهمت حصاتى وناديت قومى فاحتسبت حياتى

رمونى بعقم فى الشباب وليتنى

عقمت ، فلم أجزع لقول عداتى

ولدت ولما لم أجد لعرائسى رجالا وأكفاءً وأدت بناتى

وسعت كتاب الله لفظا وغاية

وما ضقت عن آى به وعظات

فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة

وتنسيق أسماء لمخترعات ؟

أنا البحر فى أحشائه الدر كامن

فهل سألوا الغواص عن صدفاتى ؟

أيهجرنى قومى عفا الله عنهمو إلى لغة لم تتصل برواة ؟

إلى معشر الكتاب والجمع حافل بسطت رجائى بعد بسط شكاتى

فإما حياة تبعث الميت فى البلى وتنبت فى تلك الرموس رفاتى

وإما ممات لا قيامة بعده ممات لعمرى لم يقس بممات

وهى إحدى حسنات حافظ وروائعه ؛ وأسلوبها المتين ، وديباجتها البارعة ، جعلتها ذائعة على ألسنة الناس .

وكان حافظ يحب بلاغة القدماء ، ويتمسك بها ، ويدعو إليها ؛

ولا يرى الشعر إلا فيها ، ومع ذلك فقد كان يدعو — مع دعاة الجديد — إلى التجديد فى أغراض الشعر ، فيقول مثلا :

آن يا شعر أن نفك قيوداً　　قيدتنا بها دعاة المحال

فارفعوا هذه الكمائم عنا　　ودعونا نشم ريح الشمال

وحين أراد حافظ التجديد ، لم يرده فى البيان والأسلوب ، ولا فى القوافى والأوزان ، ولا فى البلاغة والشكل ، إنما أراده تجديدا فى المضمون ، فى موضوعات الشعر وأغراضه ، فنظمه فى أغراض جديدة جعلها محور قصائده كالشعر الاجتماعى والوطني والإسلامى ، مما كان مظهر بلاغته وشاعريته ، وكانت هى الهدف الذى كان يرمى إليه فيما يقول من شعر ، حتى ولو كان موضوع قصيدته فى غيرها ، فلقد كان إذا رثى عظيما ، أو حيا عاما جديدا ، أو وصف منظرا يستثيره ، فتح لنفسه بابا ينفذ منه إلى هذه الأغراض الجديدة فى شعره .

ولننظر إلى قصيدة حافظ فى « الشمس » وهى إحدى قصائده المشهورة ، وفيها يقول :

لاح منها حاجب للناظرين　　فنسوا بالليل وضاح الجبين

ومحت آيتها آيته　　وتبدت فتنة للعالمين

هى أم الأرض فى نسبتها　　هى أم الكون والكون جنين

هى أم النار والنور معا　　هى أم الريح والماء المعين

هى طلع الروض نورا وجنى

هى نشر الورد ، طيب الياسمين

هى موت وحيـــاة للورى   وضلال وهـــدى للعابرين

وهى لا ينقصها شىء من حلاوة الموسيقى ، وعذوبة الأسلوب وخفة الألفاظ ، من حيث نجد هذه الصفات الأسلوبية كذلك فى مثل قصيدته :

لمصر أم لربوع الشـــام تنتسب
هنـــا العلا وهنـــاك المجـــد والحسب

ركنان للشرق لازالت ربوعهما
قلب الهلال عليها خافق يجب

إذا ألمت بوادى النيـل نازلة
باتت لها راسيات الشام تضطرب

وإن دعا فى ثرى الأهرام ذو ألم
أجابه فى ذرى لبنـــان منتحب

إن شعر حافظ فى حياته الأولى كان شعر الجزالة والقوة والمتانة ، ولكنه كثيرا ما يترك ذلك إلى العذوبة والرقة وبخاصة بعد أن استكمل كل أدواته الفنية فى الشعر ، وظهرت شخصيته واضحة فيه .

وكان حافظ حين شب عن الطوق ، وعكف على الشعر ، يقرأ أشعار القدماء ، ويستظهر الكثير منها ، ويعارض بعض القصائد المشهورة فى القديم ، وإن حاول أن يفوق فى ألفاظه وأسلوبه جرس البارودى ومتانته ، وظل شعره فى حلبة الصياغة والنسج على ساق مع المتقدمين ، وشبه واضح من شعر المحدثين .

وكان إلى قراءاته فى الشعر القديم ومصادر الأدب الأولى ، يحضر مجالس الشعراء ، ويستمع إلى آراء الأدباء ، ويجلس إلى الصفوة من علماء الأزهر ورجالات مصر ، من أمثال الأستاذ محمد عبده ، ومصطفى كامل . وسعد زغلول ، وحسن عاصم ومحمود سليمان ، وعلى يوسف ، ومحمد فريد ، وسواهم ، وألم قليلا باللغة الفرنسية ، وترجم عنها كتاب « البؤساء » لفيكتور هوجو شاعر فرنسا الكبير ، وقد أودع فيه خصائص بلاغته . وقد اقترنت حياة حافظ بالنهضة فى وطنه ، وكان شعره من أقوى العوامل فى هذه النهضة فى وطنه ، ومن أولى مقدماتها كذلك .

وتعاونت الأحداث جميعها فى صهر شاعريته وشخصيته ، فصار له نهجه وأسلوبه فى نظم القريض ، وصارت حياته تتجاوب مع شعره ، فى البساطة والنفور من التكلف ، والوفاء اللذين اتصلت أسبابه بأسبابهم ، وفى أنس المحضر ورقة الحاشية ؛ وبراعة الفكاهة ، التى كان أحد أعلامها فى عصره ، فهو ذائع النكتة ، سائر النادرة ، سريع الخاطر ، حلو الحديث يعينه على ذلك أنه كان قوى الذاكرة ، حافظاً للمختار من الأدب فى كل باب .

وكان إلى ذلك كله رائع الإلقاء للشعر ، يقطع الكلام على المعانى ، فيبرزها ويؤكدها ، يساعده على ذلك صوت قوى ، ونبرات موافقة ، وكان للكلام إذا جرى على لسانه أضعاف ماله من الحسن إذا جرى على لسان غيره من الناس .

وفى حياة حافظ كثير من الأسماء ، ولكن يبرز من بينها : البارودى والامام محمد عبده ، وسعد زغلول ، وشوقى .

أما البارودى فقد كان أستاذه فى الشعر ، ومثله فى الحياة . . وكان يعجب بشعره ، ويرى له فضل التقدم ، والسبق إلى التجديد ، وأن شعره كان الجسر الذى عبر عليه حافظ إلى الشعر الحديث .

وكان حافظ يقلد فى مطالع حياته شعر البارودى ، ويقتفيل طريقته ، ثم فتح له البارودى الباب إلى شعر البحترى والمتنبى وأبى فراس وغيرهم من أعلام العباسيين ، الذين أخذ عنهم تلاحم النسج ، ورصانة القافية ، وتمكن الروى ، وحاكاهم فى عيون قصائدهم ، ثم تخير لنفسه من بين شعراء عصره منهجا فى الشعر قوامه المعنى المتخير ، واللفظ البارع ، والأسلوب المحكم ، والتجاوب الوثيق بين اللفظ والمعنى ، حتى لو هيىء لك أن يحاضرك حافظ فى الأدب والشعر لصب على سمعك عصارة الشعر العربى ، وأبدع ما حفلت به قرائح الشعراء من عهد امرىء القيس إلى البارودى ، فكأنه — كما يقول عبد العزيز البشرى — أجمع كتاب لمتخير الشعر ، وذلك يرجع إلى كلفه بالصنعة والديباجة ونسج الكلام .

وكان حافظ يرى أن بهاء الشعر وجلاله ليسا فى التعلق بدقائق المعانى ، ولكنهما فى إشراق الديباجة ، وتلاحم النسج ورصانة القافية ، وكان ذلك مذهب حافظ فى الشعر ، وكان الشعر عنده هو الكلام البليغ الذى ترى معناه فى ظاهر لفظه ، وهذا هو كذلك روح مذهب البارودى .

وكما كان حافظ فى الشعر صورة لأستاذه البارودى ، كان فى الأدب والفكر والحياة صورة لأستاذه الإمام محمد عبده .

وإذا كانت الحياة قد جعلت من حافظ صورة لأستاذه البارودى ،

مما أفصح عنه حافظ فى مرثيته المشهورة فى البارودى ، والتى جعل مطلعها قوله :

ردوا على بيانى بعد محمود
فقد عييت وأعيا الشعر مجهودى

فإن العالم الأزهرى الكبير الإمام الشيخ محمد عبده ، قد أمد حافظا بكل أفكاره الإسلامية والعقلية والوطنية والأدبية ، وكان محمد عبده رائدا للجيل الذى خلف جيله ، كان رائدا لجيل حافظ وشوقى وأضرابهما .

وإلى البارودى ومحمد عبده يرجع الفضل فى شخصية حافظ ومكانته الشعرية :

أما سعد زغلول فصلة حافظ به ترجع إلى صلاتهما معا بالإمام محمد عبده إذ كان سعد كحافظ من تلامذة الإمام ، ومن نوابغ من تخرجوا على فكره وعلمه .

وأما صلة حافظ بشوقى فهى صلة الحياة والعمر والزمالة فى الشعر ، والمنزلة فى الأمة ، وكان أمير الشعراء شوقى ، وشاعر النيل حافظ تلميذين من تلامذة البارودى ؛ وإمامة البارودى للشعر الحديث فيها معنى السبق والابتداء القوى الفائق ، فى التجديد فى الشعر ، ويجىء حافظ حلقة أخرى من حلقات التجديد والنزوع بالشعر إلى حيث بلاغة القدماء ، ويجىء شوقى مرحلة أخرى تستمد أهميتها من أنه رجع فى مجال التجديد إلى محاكاة بلاغة القدماء ، وبلاغة المعاصرين له من شعراء الغرب وأعلام نهضته الأدبية .

وترجع طلائع النهضة الشعرية الحديثة إلى البارودى ، وبعض النقاد يرجعونها إلى الساعاتى الذى بدأ محاولات التجديد ، وكان حلقة اتصال بين الشعراء العروضيين والشعراء المحدثين ، ثم جاء البارودى فآلت إليه إمامة الشعراء فى العصر الحديث بلا جدال ، وكان له فضله وأثره فى حافظ وشوقى الذين صارا طبقة واحدة من طبقات شعراء النهضة الحديثة .

وإذا كان طه حسين يرى فى حافظ وشوقى أنهما أشعر أهل الشرق العربى منذ المتنبى وأبى العلاء ، فقد كان يرى أن حافظا أشعر ، وأن شوقيا أقدر .

وكان حافظ يمثل مصر الشعب ، وشوقى يمثل مصر الدولة ، وكان العقاد يعيب شعر شوقى لجانب التقليد للقدماء فيه ، كما كان يعيب هو ومدرسة الديوان على حافظ ما عابه على شوقى .

أما أبو شادى فكان يذهب إلى أن أحمد شوقى هو زعيم الشعراء المحافظين وأن حافظا هو شاعر المجتمع والجمهور ؛ وكان أبو شادى يحتفى بأصالة الشاعرين ويقدر أثرهما فى النهضة الشعرية .

وفى رأيى أن حياة شوقى وبيئته الخاصة والعامة أمدته بأسباب كثيرة لزعامة الشعراء ، مما لم يتوافر لحافظ مثلها .

ولكن حافظا فى شاعريته وأصالته وموهبته مقدرة شعرية جليلة تقف بجوار عبقرية شوقى وملكته الشعرية ذات الشهرة والخلود .

ومن قصائد حافظ المشهورة قصيدة « مصر تتحدث عن نفسها » :

وقد أنشد الشاعر هذه القصيدة فى حفل تكريمى لعدلى يكن باشا بعد عودته من أوربا وقطعه المفاوضات مع الانجليز واستقالته من الوزارة فى ديسمبر سنة ١٩٢١ وقد جعلها على لسان مصر ، ومنها :

وقف الخلق ينظرون جميعا كيف أبنى قواعد المجد وحدى

وبناة الأهرام فى سالف الدهر

كفونى الكلام عند التحدى

أنا تاج العلاء فى مفرق الشر

ق ، ودراته فرائد عقدى[١]

أى شىء فى الغرب قد بهر الناس

جمالا ولم يكن منه عندى

فترابى تبر ونهرى فرات

وسمائى مصقولة كالفرند[٢]

أنا إن قدر الآله مماتى

لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدى

---

(١) العلاء : الرفعة والشرف . المفرق بكسر الراء : وسط الرأس . الفرائد: الجواهر التى لا توائم لها لنفاستها واحدتها فريدة ، ويريد بدراته ممالك الشرق التى كان لمصر الزعامة عليها .

(٢) التبر : الذهب . الفرات : العذب . الفرند : السيف .

ما رمانى رام وراح سليما | من قديم عناية الله جندى
كم بغت دولة على وجارت | ثم زالت وتلك عقبى التعدى
إننى حرة كسرت قيودى | رغم رقبى العدا : وقطعت قدى[١]

أى شعب أحـــق منى بعيش
وارف الظل أخضر اللون رغـد[٢]

أمن العدل أنهم يردون الـ | ـماء صفواً وأن يكدر وردى
أمن الحق أنهم يطلقون الأ | سـد منهم وأن تقيد أسدى
نصف قرن إلا قليلا أعانى | ما يعانى هوانه كل عبـد
نظر الله لى فأرشـــد أبنا | ئى فشدوا[٣] إلى العلا أى شد
إنما الحق قوة من قوى الديا | ن أمضى من كل أبيض هندى[٤]

وكانت شاعرية حافظ إبراهيم أقوى ما تكون نضوجاً واكتمالا ، فصعد به ادبه إلى الذروة ، واستطاع بلباقته الفذة ، وذوقه الخاص ، أن يتبوأ مكانته فى التاريخ الحديث كشاعر لا يقل فى ضخامة جرسه ، وجهارة صوته ورنين كلماته ، عن أستاذه البارودى ،

---

(١) رقبى العدى : أى مراقبتهم لى . القد : القيد يقد من جلد .
(٢) وارف الظل واسعه ممتده . أخضر اللون . كناية عن الخصب والثراء .
(٣) شدوا : جروا وأسرعوا .
(٤) الأبيض الهندى : السيف .

وحافظ فى الطليعة من شعراء العصر كما قدمنا ، وقد قلد البارودى وتقيل طريقته ، منذ أن تفتحت أكمام شاعريته ، وتأثر بما استظهره من الشعر الرصين ، ثم ابتكر فى شعره نهجا تميز به عمن يعاصرونه من الشعراء ، قوامه الأسلوب الساحر ، والمعنى الجميل ، وعذوبة الكلمات ورشاقة العبارة ، والتجاوب الوثيق بين المبني والمعني ، وكان شعره سجلا لأحداث الوطن ، ترى فيه صيحة الوطنية وصرخة الألم ، وصور المظاهرات والثورات ، فكان لذلك شاعر الشعب .

وقد أضاف حافظ إلى فنون الشعر فنا جديداً هو الشعر الاجتماعى الذى نبغ وحلق فيه ، وفيه صور المجتمع وآلامه وآماله ، ويعد فى الشعر الاجتماعى والوطني قمة عالية من بين شعرائنا المعاصرين .

وكذلك نظم فى الشعر الوطني أروع قصائده ، وأجمل آياته .

وهذه القصيدة فى موضوع وطني جليل ، كانت تستدعيه حالة مصر السياسية آنذاك والاحتلال الانجليزى جاثم على صدر الوطن ، والشعب يكافح الانجليز ويجالدهم ، وقد حلق فيها حافظ وجود تجويداً ظاهراً .

وفيها ينوه حافظ بجهاد مصر لاسترداد مجدها . هذا الجهاد الشبيه بجهادها فى الغابر فى سبيل تأثيل الحضارة . . وينوه حافظ كذلك بكل مقومات مصر الحضارية وهى كثيرة موفورة : من خصب الأرض وعذوبة النيل واعتدال الجو .

ويشير فيها إلى أن مصر هى روح الشرق ، وإلى أن عناية الله دائماً

معها ، وتأييده لها ظاهر واضح خلال أحداث التاريخ ، وقد أشاد حافظ بعزة المصريين وحبهم للحرية .

وحمل على الاستعمار حملة قوية شديدة فيها رمز وخفاء .

وعلى الجملة ، فالقصيدة قوية الأسلوب ، محكمة الديباجة ، متينة التركيب متعددة المعانى ، ظاهرة فى الفخر ، وهى من حسنات حافظ وفرائده .

وتمثله شاعر الوطنية والحرية فى مصر الحديثة ، كما تمثله مناضلا خطيراً للانجليز وللاستعمار دون تصريح وإيضاح .

وأسلوب القصيدة قوى متين بارع الأداء والديباجة ، ولهذه القصيدة شهرة كبيرة فى تاريخ الشعر العربى الحديث ، وهى من فرائد الشعر وروائعه وكلا سيكيتها ظاهرة واضحة ، وقد غنتها أم كلثوم سيدة .

* * *

عزيز أباظة والمسرح الشعرى

١٨٩٨ – ١٩٧٣

— ١ —

• مازلت أذكره : فارع الطول ، أبيض الوجه، مشربا بحمرة الشباب. على وجهه ابتسامة دائمة ، تحمل معنى الاطمئنان والثقة والأمل .

• وفى أيام المحن كانت هذه الابتسامة تعلوها مسحة التفكير العميق، والتصدى للأحداث والتحدى للخطوب .

كنت فى أسيوط أيام عام ١٩٤٦ ، وكنا نعقد الندوات الثقافية بجمعية الشبان المسلمين فيها ، وكان مدير — محافظ — أسيوط آنذاك هو الشاعر الكبير عزيز أباظة . وكان يحضر بنفسه ندواتنا ، ويشارك فيها بالرأى والتوجيه والحوار ، وما كان أحد من حكام الأقاليم الكبار يفعل ذلك ، ولا يتصوره فى يوم من الأيام .

وفى مطبعة مصر ، وكان عزيز أباظة (باشا) رئيسا لإدارتها ، كنت أزوره فى مكتبه فيها ، فأشعر بأنه قد خلق شاعرا قبل أن يكون أى شىء آخر ... وفى منزله فى الزمالك ، وفى فندق عمر الخيام فى أول هذه الضاحية الجميلة قابلته مرات ومرات ، حيث كنت أجد فيه روح الشاعر الانسان قبل أن ألمس منه روح الرجل العظيم ، الذى يحمل على كاهله أعباء المجد والشاعرية والشعراء . . .

ودعوناه ليحاضر فى رابطة الأدب الحديث ، فى أمسية من أمسيات الثلاثاء ، فلبى الدعوة ، وحضر وجلس طويلا ، يتحدث ويطيل الحديث. ..

ويدور الحوار حول المسرح الشعرى بين أمسه وحاضره ، وهو لايمل الجلسة أبدا .

عزيز أباظة الرجل الإنسان، الشاعر المحلق ، والأديب الكبير... شخصية فريدة فى تاريخنا الأدبى المعاصر ، قل أن يجود بمثلها الزمان . .

بالأمس كنت أقرأ كتاب «أبى عزيز أباظة» تأليف ابنته عفاف عزيز أباظة ، فراعنى بساطة أسلوبه ، وروعة ما احتوى عليه من صدق ودقة فى تحليل شخصية الرجل ، وعرض سيرته عرضا جميلا جذابا مؤثرا . . .

وما أجدر عزيز أباظة بأن تخرج عنه مئات الدراسات ، فعبقرية هذا الرجل وشاعريته لايفى بحقها قلم ، ولا يمجد عظمتها إنسان ..

ولد عزيز أباظة فى قرية «الربعماية» بالشرقية فى ١٣ أغسطس عام ١٨٩٨م وتلقى ثقافته الأولى فى القرية ، ثم فى مدارس الشرقية والقاهرة ، وظهرت موهبته فى الأدب والشعر منذ صغره ، وعكف على كتب التراث يتزود منها بقسط موفور من الثقافة الأدبية . .

وشاهد حركة مصطفى كامل ، وثورة ١٩١٩ التى تزعمها سعد زغلول ، وشاهد كل الأحداث التى مر بها وطنه فى القرن العشرين حتى وفاته . .

وفى عام ١٩٣٦ انتخب عضوا فى مجلس النواب ، وبعد قليـــل اختير مديرا للقليوبية ، فالمنيا ، وبور سعيد ، وأسيوط ... ثم لم يلبث أن انتخب مرة أخرى لمجلس النواب ، فمجلس الشيوخ ، ثم اختير رئيسا لإدارة مطبعة مصر، فعضوا فى كثير من الشركات والمؤسسات ، ومقررا للجنة الشعر بالمجلس الأعلى للفنون والآداب ...

وظل كذلك يجوب البلاد، ويقوم بالرحلات إلى الخارج، حتى استأثرت به رحمة الله فى الحادى عشر من شهر يوليو عام ١٩٧٣ ، فخسرت مصر وخسر العالم العربى، وخسرت دولة القريض علما من أكبر أعلامها، وشاعرا من أعظم الشعراء ، الذين دعموا نهضـــة الشعر والأدب ، وأسدوا للحركة الشعرية المعاصرة كل ما نعتز به من ازدهار وشموخ وجلال .

خلف عزيز أباظة خمسة دواوين هى :

١ — أنات حائرة .

٢ — من الشرق والغرب .

٣ — تسابيح قلب .

٤ — فى موكب الحياة .

٥ — فى موكب الخالدين .

وترك عشر مسرحيات شعرية ، وهى :

١ — قيس ولبنى ، وقد نظمها فى المنيا عام ١٩٤٢ ، وكان شوقى قد كلفه بكتابتها قبل وفاته ، وقد قدم لها الأستاذ عباس محمود العقاد .

٢ — العباسة ، وقد قدم لها د. محمد حسين هيكل ، ومثلت لأول مرة على مسرح الأوبرا فى ٣ من نوفمبر عام ١٩٤٥ .

٣ — مسرحية الناصر ، وقد قدم لها الأستاذ أحمد حسن الزيات.

٤ — مسرحية شجرة الدر ، وقد مثلت فى مسرح الأوبرا فى أول نوفمبر عام ١٩٤٧

٥ — غروب الأندلس ، وقد قدم لها د. طه حسين ، ومثلت لأول مرة على مسرح الأوبرا فى القاهرة فى ١٥ من نوفمبر ١٩٥٢.

٦ — شهريار ، وقد قدم لها د . طه حسين ، ومثلت لأول مرة على مسرح الأوبرا فى القاهرة فى ١٥ من نوفمبر ١٩٥٢ . .

٧ — أوراق الخريف كتبها عام ١٩٥٧ . .

٨ — قافلة النور ، نظمها عام ١٩٥٨ . .

٩ — مسرحية قيصر ، نظمها عام ١٩٦٣ . .

١٠ — مسرحية زهرة ، وقد كتبها عام ١٩٦٨ . .

ولم تمثل هذه المسرحيات الأربع الأخيرة . .

وقد درس د . عبد المحسن عاطف سلام المسرح الشعرى عند شاعرنا الكبير فى كتابه « مسرحيات عزيز أباظة » . .

وللشاعر أباظة ملحمة شعرية رائعة فى السيرة النبوية بعنوان « من إشراقات السيرة الزكية وقد نشرت عام ١٩٧١ ، وقدم لها الأستاذ أحمد حسن الباقورى .

والمسرح الشعرى عند عزيز أباظة مسرح جد غني بالشاعرية والموهبة والصراع والحوار الشعرى الجميل . .

وفى مسرحياته الست الأولى يتناول الشاعر أحداثا تاريخية ، وكذلك يتجه إلى التاريخ فى مسرحيتيه : قافلة النور ، وقيصر .

أما مسرحيتاه الأخريان : أوراق الخريف ، وزهرة فيتجه فيهما إلى الموضوعات الاجتماعية المعاصرة ، وإن كان قد تأثر فى مسرحية « زهرة »

بمسرحية الشاعر المسرحى الإغريقى القديم يوربيدس ، كانت بطلتها هى « فيدرا » ، التى كتب عنها أيضا الشاعر الرومانى الفيلسوف « سنكا » ، والشاعر الفرنسى « راسين » . .

وفى المسرحيتين الاجتماعيتين بسط شاعرنا الكبير عزيز أباظة لغته حتى صارت أقرب إلى اللغة اليومية ، دون أن يتخلى عن فصاحة لغته وجمالها . .

والمسرح الشعرى عند عزيز أباظة حافل وغني بالحوار والصراع وبالشخصيات المسرحية . . ويدافع عزيز أباظة عن اتخاذ الشعر لغة المسرح فى العصر الحديث ، بينما يعارض الدكتور طه حسين ذلك . .

وحين يرى طه حسين أن التمثيل شب عن طوق الشعر وتحرر على أوزانه وقوافيه — (ص ٦٤٧ مسرح الشعر — ج ١ — عزيز أباظة) ، يرى الشاعر الأباظى أن الشعر أنسب للغة الحوار على المسرح من النثر (ص ٨١٥ مسرح الشعر — أباظة — المجلد الأول) . .

ولقد كان أرسطو يعتبر المسرحية قسما من أقسام الشعر ، ويرى أن المأساة أرقى أنواع التعبير الشعرى ، فهى أرقى ضروب الشعر جميعها . .

والمسرحيات الإغريقية والرومانية القديمة كانت كلها شعرا ، من مثل مسرحيات : اسخيلوس ، وسوفوكليس ، يوريبيدس ، أرستوفان ، منياندر سنكا ، بلوتس . .

وفى عصر النهضة وازدهار الكلاسيكية فى العصر الكلاسيكى

ظلت المسرحية تكتب شعرا ، كما نراها عند أمثال : شكسبير ، كورنى ، راسين، واضرابهم.

وفى تيار الرومانسية ! وتيار الواقعية كتب المسرحيون مسرحياتهم نثرا ؛ مخالفين بذلك الأصول الكلاسيكية . .

وإن كان بعض الكتاب المسرحيين ظلوا يكتبون مسرحياتهم شعرا؛ من مثل : اليوت فى أمريكا ؛ كريستوفر فراى فى انجلترا ؛ واندرسون فى أمريكا أيضا ، ولوركا فى أسبانيا ؛ وييتس فى إيرلندا .

ويقول سومرست موم : إن المسرحية النثرية التى وقفت عليها حياتى كلها سوف تموت عما قريب ، وقد بدأ الجمهور المثقف يسعى إلى المسرحية الشعرية ويفتح صدره وذراعيه لها . وقد نقلت مسرحيات الغرب إلى العربية شعرا ونثرا .

والمسرح الشعرى العربى بدأه أحمد شوقى أمير الشعراء بمسرحياته الخوالد ، من أمثال : كليوباترا ، مجنون ليلى ؛ عنترة ؛ وغيرها .

وقد خلف عزيز أباظة أمير الشعراء أحمد شوقى فى إمارة المسرح الشعرى ، بما قدم من أعمال مسرحية خالدة باقية على امتداد الأيام . وحمل لواء الشعر المسرحى بعد شوقى سنوات طوالا تبلغ الأربعين . وفى الشعر سنوات طوالا تبلغ نحو ذلك .

ويقول العقاد عنه : عزيز أباظة شاعر من شعراء الطبقة الأولى فى اللسان العربى ، ومؤلف من مؤلفى القصص التمثيلى المعدودين فى هذا الزمان . . (ص ٢١ المجلد الأول من مسرح الشعر لعزيز أباظة) .

وشهرة ديوان أباظة « أنات حائرة » فى الشعر الحديث شهرة فائقة ، فقد وقفه على رثاء زوجته وابنة عمه التى توفيت فى التاسع عشر من يونيو عام ١٩٤٢ ، وضمنه أحر العواطف وأنبلها وأسماها .

يحل يوم ميلاد الشاعر ، فيذكر رفيقة حياته التي ودعت الحياة ، ويقــول :

أقول والقلب فى أضـلاعه شرق
بالدمع لا عدتَ لى يا يوم ميلادى

ويقول من قصيدته من « أطياف الماضى » التي نظمها بعـد وفاتها بنحو شهرين :

طوفت بالبيت الحزين مسلما فبكى وأوشك أن يرد سلامى
وجعلت أسأله فلو ملك البكا واسطاعه لبكى بدمع هامى

أعرفتنى يا دار أم أنكرتنى ؟
نهب الأسى والبث والآلام

يا دار قد مال الزمان بأنسنا وهوى بمونق شملنا الملتـام
يا أخت آمال الصبا ومراحه والضاحك النشوان من أحلامى

إن تبعـدى فأنا المقـيم بلا عجى
ومودتى حتي يحـين حمامى

ويقالى لى : اصبر ، ما لذلك حيـلة
والنار بين ترائبي وعظامى

وقصيدته «ليلة وليلة» لا نظير لها في الشعر العربي ، وقد نظمها الشاعر في الذكرى الأولى لوفاة زوجه ، وفيها يقول :

يا ليلة جمعتنا بعد طول نوى
ذكراك هاجت لنا الأشجان ألوانا

ذكرت ما كان من عرس جلوت به
على أكرم خلق الله إنسانا

بيضاء هيفاء تحكي الصبح مؤتلقا
والروض متسقا ، والبان ريانا

جئتنا تضيء ظلام الليل بسمتنا
وأستثير شجون الليل نجوانا

قالت وقلت ، فلم تفرغ مقالتنا
إلى الصباح ؛ ولم تهدأ شكاوانا

وحولنا الليل يطوى في غلائله
وتحت أعطافه نشوى ونشوانا

ونحسب الكون عش اثنين يجمعنا
والماء صهباء والانسام الحانا

لم نعتنق وذهول العرس يغمرنا
وكم تعانق روحانا وقلبانا

ثم انثنينا وما زال الغليل لظى
والوجد محتدما ، والشوق ظمآنا

اما روائعه في الوطنية والقومية فكثيرة لاتحصى ، ومنها قصائده : وحى الجلاء — حريق القاهرة — من وحى النكسة — أم كلثوم — إلى الشباب — ذكريات المقرن — روما وشوق — أشواق — ليلة في رحلة الأميرة تحفة .

ويطول بنا الحديث عن هـذه القصائد وأمثالها من قصائد الأباطى العصماوات وأوابده الخالدات .

ولا أنسى شعره الإسلامى فى ملحمته الخالدة : « من إشراقات السيرة الذكية » التى نظم فيها السيرة النبوية شعرا .

وفى قصيدته دنيا القرآن يقول فى كتاب الله الحكيم :

أناف على العقول فقيل : شعر وعز على الفحول ، فقيل : سحر

تعالى الله أحكمه كتابا فليس لعاقل أن ضل عـذر

مطالع حكمة ، ومعين هدى وبحر مج فيـه الدر در

تحدى ، وهى من ألف ولام فواصله ، وأعجز وهـو نثر

ويقول فى الأزهر ، وهو يرثى شيخا أزهريا هو « العلامة الشيخ محمد على النجار عضو المجمع اللغوى » :

منـبر فى ثرى الكنانة قدسى تتمنى لو قـد حوته الثريا

ما ارتقى المصلحون أعرق منه شرفا سامقا وعتقـا سنيا

إنه الأزهر الشريف أجد اللـ ـه فى صحنه السنا العربيـا

فى حمـى الأزهر الرحيب وفى أفيـ

ـيائه الحانيات عشنـا مليـا

يا أبا الجامعات فى الشرق والغـر

ب ويا شيخها الوقـور التقيـا

كم بنيت الأفذاذ فكرا وعلما عبقرى منهم يلى عبقـريا

وعن الفيلسوف الاسلامى المصلح الشاعر محمد إقبال يقول الأباظى :

في جلال الهداة من أنبيائه ... وسني الخالدين من شعرائه
حمل الشرق مشعل الفكر في الدهر ... وشع الجمال في أرجائه
إيه اقبال أنت من لمع اللـ ... ـه على خلقه ، ومن آلائه

ومن حكمه في خواطره « قال صفوان » يقول شاعرنا الكبير :

واجعل الحكم حكم شورى فإن ... البغى أدنى إلى حكومة فرد
ليس رأيان فى الامور كرأى ... واختلاف الآراء ينجى ويهدى
لست أحجى رأيا من المرسل ... المعصوم حتى تقول أقطع وحدى
إنما تسفر الحقائق كالصبح ... بأخذ من الحوار ورد
قد سمعنا عن الطغاة وعسف ... أوقعوه فلم يقف عند حد
حكم فرد حتى وإن كان عدلا ... غير مجد فى ملتقى ، غير مجدى

وشعر عزيز أباظة بموسيقاه الحلوة التى تأثر فيها بأستاذه أمير الشعراء أحمد شوقى رحمه الله ، وبألفاظه الجميلة ، وبأسلوبه البليغ الرائع ، وبمضامينه الانسانية النبيلة فى شتى أغراض الحياة ، وبكل خصائص الموهبة والملكة والمقدرة الشعرية ، حرى بالحفاوة ، جدير بالأكبار والتقدير ، قمين بأن يرفع صاحبه إلى ذروة المجد ، وقمة الخلود .

وقد ترك لنا عزيز أباظة أعماله الشعرية الآتية :

١ — قيس ولبنى ... عام ١٩٤٣
٢ — العباسة ... « ١٩٤٧
٣ — الناصر ... « ١٩٤٩

٤ — شجرة الدر عام ١٩٥٠

٥ — غروب الأندلس « ١٩٥٢

٦ — شهريار بالاشتراك مع عبد الله البشير عام ١٩٥٧

٧ — أوراق الخريف .

٨ — قافلة النور .

٩ — قيصر .

١٠ — زهرة .

١١ — بين الشرق والغرب :

١٢ — تسابيح قلب .

١٣ — فى موكب الحياة .

١٤ — « « الخالدين .

١٥ من إشراقات السيرة .

وكتب عن مسرحياته عبد المحسن عاطف سلام ، وكتب الدكتور سعد ظلام رسالة الدكتوراه عن عزيز أباظة والمسرح الشعرى .

وقد أصبح اسم عزيز أباظة اسما خالداً فى تاريخ الشعر العربى الحديث ، فلقد جاء بعد شوقى فورث مكانته الشعرية ، وعذوبته الرائعة . وموسيقاه الحلوة ، وخلفه فى فن المسرحية الشعرية ، وأسدى إلى الشعر والشعراء ، وإلى الأدب ونهضتنا الأدبية ، أيادى لم يسدها إليها شاعر آخر من جيله .

ودواوين أباظة ومسرحياته درة فى جبين الشعر المصرى ، وسوف تظل خالدة على مدى الأحقاب ، رمزاً لعبقرية الشاعر ، وجلال الشعر .

ونحن مع عمل فني جليل ، من أعظم أبداعات الشاعر عزيز أباظة وهو ملحمته الرائعة في سيرة رسول الله ، صلوات الله وسلامة عليه ، وقد اختار لها عنوانا جميلاً هو «من اشراقات السيرة الزكية» ، وتتناول جميع جوانب السيرة النبوية الخالدة ، في قصائد من أعذب الشعر وأجمله وأكثره إمتاعاً وتأثيراً وسحراً .

لقد كانت القصائد النبوية التي نظمها الشعراء على اختلاف العصور ، وآخرهم أمير الشعراء أحمد شوقي مقدمة رائعة لكتابة الملحمة الشعرية الحديثة في السيرة النبوية الكريمة ، صنع ذلك الشاعر أحمد محرم (- ١٩٤٥) في ملحمته « الألياذة الإسلامية » . . وصنع ذلك بعده الشاعر الكبير المرحوم الخالد عزيز أباظة (١٨٩٨ — ١١ يوليو ١٩٧٣ م) في هذه الملحمة الرائعة ، التي جادت بها شاعريته المحلقة والمبدعة معا ، والتي قدم لها العالم المصري الأزهري الجليل ، الشيخ أحمد حسن الباقوري . وقال في تقديمه : إن الشاعر عزيز أباظة قد لخص السيرة النبوية في هذه الملحمة الشعرية الرائعة يبتغي من وراء ذلك : أن يلفت حدثاء الإنسان من أدبائنا إلى أن لغتنا العربية الشريفة قادرة أبين القدرة على التعبير عن كل ما يختلج في الصدور ، ويطيف بالأذهان وتحتاج إليه حقائق الحياة ، وأن يدعو القادرين على العمل والقيادة والتوجيه إلى أن يضعوا نصب أعينهم هـــذه السيرة النبوية الشريفة ، يستمدون منها الحرية الشاملة والعدالة الكاملة ، والسلام العزيز .

ولقد افتتح عزيز هذه الملحمة بقصيدة تعد من عيون شعر المدح النبوي ، وعنوانها « يارسول الله » .

ويلى ذلك قصائد كثيرة فى السيرة النبوية من بدئها لختامها ، وعددها ثلاث وثلاثون قصيدة : الفترة ـ مكة — زمزم — النذر — أفراح مكة ـ زواج عبد الله وآمنة — عام الفيل — المولد الشريف — الاسترضاع فى بني سعد — وفاة آمنة وعبد المطلب — محمد — خديجة والزواج — الأرهاصات — البعثة — عام الحزن — الإسراء والمعراج — الهجرة — بدر — بعد بدر — افتداء الإسرى — حد — بعد أحد — الخندق — حديث الأنك — رسل النبى وبعوثه — مؤتة — فتح مكة — المرأة وأمهات المؤمنين — حنين — حجة الوداع — فى الرفيق الأعلى — روضة الرسول .

وتقع هذه القصائد كلها فى أكثر من ثلاثمائة وألف بيت من الشعر ، وهى قصائد حافلة بالاشراق الروحى ، والطهر النفسى ، وبالجمال الفني والموسيقى الشعرية العذبة ، وتتميز بقوة التأثير وجلال الإبداع .

فى القصيدة الأولى « الفترة » يقول الشاعر عزيز أباظة :

بعث المرسلون والأنبياء مكرمات تزفهن السماء
الذبيح الكريم والذابح السمـ ـح حنيف نمتهما حنفاء
رفعا البيت بيت ربك رمزاً رب بان وربه البناء
قف ببطحائها قبالة بيت الله واخشع فإنها البطحاء

إلى آخر هذه القصيدة الهمزية الجميلة التي نظمت من بحر الخفيف .

وكذلك كانت قصيدة (مكة) ، التي يقول فى مطلعها :

عفر الدهر رأسه فى ثراها وعنت عند قدسها الجوزاء

أما قصيدته « زمزم » فمن بحر الرمل ، ومطلعها :

بين صحراء وأرض جلمد ورمال وسهول وهضب
عاش والتاريخ فى حبوته منذ إسماعيل أفناء العرب

وهى قصيدة طويلة (واحد وثلاثون بيتا) بائية الروى .

ويسلك الشاعر عزيز فى قصيدته النذر مسلكا فنيا آخر فهى من مجزوء الرمل فى جزئها الأول .

أما الجزء الثانى فمن بحر الرجز ، وتتغير القصيدة بعد كل بيتين أو أكثر : يقول فيها الشاعر :

بات عبد المطلب بين هم ووصب
أرقا والنار فى جنـ ـبيه تخبو وتشب
ويدير الرأى والآ راء حيرى تضطرب

ويقول فيها كذلك :

ومرت الايام والنا ذر يعطى ما تمنى
فاذا أقبل عام رزق ابنان أو أبنا

والشطرة الاولى من البيت يقتضى وزنها حذف الواو من (ومرت) من أجل الوزن .

ويقول فى القصيدة أيضاً :

أنقذ عبدالله لطف الله ليمنح الدنيا رسول الله

وفى قصيدته أفراح يقول الشاعر :

انظر لمكة تشهد أيامها أفراحاً

وهى من المجتث وقافيتها متعددة .

وتجىء قصيدته « زواج عبدالله وآمنة » من بحر البسيط وقافيتها ميمية .

وقصيدته « عام الفيل » من بحر الرجز وهى ذات قواف متعددة .

أما قصيدة « المولد الشريف » فهى من الكامل وهى همزية القافية وفيها يقول :

اليوم ضاح والنسيم رخاء وتريق فيض رواتها الصحراء

وتبرجت تحت الظلال وأشرقت كالمحصنات الكعبة الغراء

وشى الجلال جمالها والحسن فى حضن الجلال الفتنة العذراء

وتتميز بالعذوبة والجمال اللذين لاحد لهما . .

وقصيدة « الاسترضاع فى بنى سعد » من بحر الخفيف وقوافيها متعددة . وكذلك قصيدة « رثاء آمنة وعبد المطلب » وقصيدة « محمد » من بحر المتقارب وقافيتها متعددة . وهى طويلة . وقصيدة « خديجة والزواج » من بحر الخفيف ، وتتعدد فيها القوافى وهكذا تختلف صور القصائد الباقية وزناً وقافية .

« الارهاصات » من بحر الرجز ، متعددة القوافى . . « مبعثه أو البعثة » من « مجزوء بحر الكامل » ومتعددة القوافى وهى قصيدة طويلة جداً .

وقصيدة « عام الحزن » من الخفيف ومتعددة القوافى و « الإسراء

والمعراج » من الكامل ، وهى كذلك متعددة ، وقصيدة « الهجرة » من الرمل ، ومتعددة القوافى أيضا .

ويبدأ الشاعر قصيدته « بدر » بقوله :

زمان الضعف ولى واستعادت
مكانتها جموع المسلمينا

والقوافى متعددة كذلك :

وقصيدة « بعد بدر » من الرمل ومتعددة القوافي .

وقصيدة « افتداء الأسرى » من الخفيف ومتعددة القوافى .

وقصيدة « أحد » من بحر البسيط فى جزئها الأول ومن المتقارب فى جزئها الثانى ، والقصيدة طويلة .

وهكذا تتعدد صور الموسيقى الشعرية فى هذه الملحمة الشعرية المبدعة العذبة تعدداً يسير مع الذوق والفن والجمال فى إطار واحد .

إن هذا العمل الكبير الذى صنعه الشاعر العظيم عزيز أباظة ، لعمل خالد على مر الأيام ، لقد صاغ السيرة أو أهم أحداث السيرة ، شعرا رفيعا جميلا عذبا ، رفافا ، حلو الموسيقى والنغم ، قوى التأثير والروح والاشراق ، جليل السحر والابداع والمتعة .

ولقد صور الأحداث والمواقف والوقائع والمعجزات صورا عجيبة

التضيج والخيال ، وما أروع ما يقول فى القرآن الكريم فى قصيدته (مبعثه صلى الله عليه وسلم) :

بيمينه التنزيل تخلق جدة الـ دنيا وغض جديدها لا يخلق

يطوى الدهور إلى الدهور وهديه سحر البيان بكل دهر أخلق

بل ما أروع كل شعر هذه الملحمة النبوية الخالدة التى تسجل اسم عزيز أباظة الشاعر على مدى الأجيال فى صحائف الخلود .

* * *

محمد مصطفى الماحى

ما زلت أذكر الشاعر ، محمد مصطفى الماحى ، وهو ينشد الجماهير شعره ، وهى مأخوذة بسحر بيانه ، وروعة صوره ، ونبل معانيه ، وجمال صياغته ، وسمو حكمته .

وكان الماحى يشبه حافظا شاعر النيل ، فى أسلوبه وديباجته ، وفى كلاسيكيته وعموديته الرائعة ، وفى توفره على الشعر الوطنى والاجتماعى والعربى والاسلامى ، وقد يكون من بين شعراء المدرسة الحديثة فى الشعر المعاصر أكثر الشعراء تأثرا يحافظ فى خياله وصياغته ومنهجه الشعرى فى القصيدة .

والماحى شاعر عالى المنزلة بين شعراء طبقته ، هذه الطبقة التى ورثت طبع البحترى ، وعذوبة الشريف الرضى ، ورقة البهاء ، وبلاغة البارودى ، وشاعرية شوقى وحافظ . وهى طبقه ورثت مجد الشعر العربى بعد البارودى وشوقى . ويكاد ينفرد تأثير الشعر فى المجتمع المصرى والعربى الحديث عليها وجدها ، من بين من عداها من الشعراء المعاصرين ، الممعنين فى التجديد والتطور ، مما جعل شعرهم بعيدا عن الف الناس وأذواقهم .

ويمتاز شعر الماحى بأصالة الطبع ، وصفاء الروح . ومن شعراء طبقته : محمد الأسمر (١٩٠٠—١٩٥٦) ، ومحمود غنيم (— ٢٤ من سبتمبر ١٩٧٢) ، وعلى الجندى (١٨٩٨ — ، يونيو ١٩٧٤) ومحمود عماد (١٨٩٦— ١٩٦٥) ، ومحمد عبد الغنى حسن ، وعامر بحيرى ، وسواهم .

وفى شعره نجد — كما يقول الشاعر عبد الله عفيفى — صولة الحب ،

وثورة العاطفة ، ويقظة الشاعرية . وكان ينظم فى الاجتماع والشكوى والوصف والرثاء والعتاب ، كما يقول عماد . إلى نزعته فى الحرية ، وإيثاره الحكمة ، كما يقول الشاعر على شوقى . وينوه عمر الدسوقى بموهبته وصدق عاطفته ، كما ينوه الصيرافى بصدقه الفنى .

ويرى عبد الله عفيفى أن الشاعر الماحى شاعر مصرى أصيل ، يصل ما بينه وبين أسلافه بسبب متين . وقد ألهمته نظرته وروحه المصرية ذلك القول المستفيض من حديث الإخاء والأخوان ، وأروع ما تلقاه من من شعره — كما يرى الشاعر الأسمر — هو شعره فى النسيب .

ويتسم شعره — كما يرى الشاعر الكبير عزيز أباظة — بطابع أصيل من الروعة المشرقة الجذابة ، سواء فى التعابير التى أبرزها الشاعر من خلال أحاسيسه ، أو البناء الفنى الذى أفرغ فى إقامته ما يملك من مواهب وملكات ، إلى شفافية روحه ، وصراحة صياغته ، لخياته الإنسانية وحياته الفنية لا اختلاف بينهما . وتلك إحدى الميزات التى لم يحظ بها إلا القلائل من الشعراء ، ومن ثم رأينا شعره مرآة صافية لنفسه .

وكتب المرحوم د . أحمد زكى أبو شادى عنه فى مجلة أبولو عام ١٩٣٤ يقول : للماحى ديباجة صافية ذات روح حلوة ، لا يحس القارىء فيها بعداء عن شخصية صاحبها إذا عرفه ، وأسلوبه غنائى ، له جرس بديع ، تجرى حلاوة موسيقاه ورقتها من ينابيع شعر البحترى وابن زيدون وشوقى .

ولنشأة الماحى فى دمياط ، وتأثره بشعرائها ، ومن بينهم : الشاعر

المطبوع على العزبى ، أثر كبير فى شعره وشاعريته . وكانت دمياط بمدرستها المتبولية مركزا من مراكز الثقافة ، والشعر فى مصر ، فى أوائل القرن العشرين . وقد أدرك الشاعر ، عصر ازدهار هذه المدرسة ، وشعراءها الكبار ، من أمثال : على الغاياتى ، وعلى العزبى ؛ وعبد اللطيف النشار وسواهم .

ثم كان لقراءاته الواسعة ، ولثقافته الأدبية الكبيرة ، ولتجاربه فى الحياة ، وحياته فى صميم زحامها ، أثر فى شعره وشاعريته .

ولقد تلقفته بيئة الأدب والشعر فى وزارة الأوقاف ، وأثرت فى طبعه الشعرى تأثيرا كبيرا ، وكان من أعلامها : محمد المويلحى صاحب «حديث عيسى بن هشام» ، وعبد العزيز البشرى ، وأحمد الكاشف ، وعبد الحليم المصرى ، وعباس محمود العقاد ، ومحمود عماد ، وكامل كيلانى ، وحسن الدرس ، وعلى شوقى .

وكذلك اتصل من قرب بشتى المدارس الفكرية ، وعاصر مختلف المدارس الأدبية والشعرية ، وتأثر بها واحتذاها فى شعره وأخذ عنها ، من مدرسة الفحول من الأدباء والشعراء: كالمويلحى ، والبشرى والرافعى ، والكاشف ، والغاياتى ، والعزبى ، إلى مدرسة المجددين : كمطران ، والعقاد وطه حسين ، والمازنى ، وأبى شادى . ومن الكلاسيكيين إلى الرومانسيين: وكان كالنحلة الدائبة الحركة ، تجمع الرحيق من شتى الأزاهير ، وتحيله غذاء شهيا لذيذا . ومن ثم وجدناه من أعضاء رابطة الأدب الجديد (١٩٢٩ ـ ١٩٣٢) . فجماعة أبولو التى قامت عام ١٩٣٢ ، فجماعة أدباء

العروبة ، فرابطة الأدب الحديث . واختير عضوا فى لجنة الشعر فى المجلس الأعلى للفنون والآداب ، وعلى مقررا لهذه اللجنة حتى وفاته . وكانت فترة عمله فيها من أخصب الفترات فى حياة هذه اللجنة .

ومن ميلاد الشاعر فى دمياط فى الرابع والعشرين من سبتمبر عام ١٨٩٥ ، إلى التحاقه بوظيفة فى وزارة الأوقاف عام ١٩١١ ، إلى تركه للوظيفة والوظائف عام ١٩٥٥ ، بعد أن وصل إلى درجة مراقب عام فى هذه الوزارة ، إلى وفاته فى السابع من نوفمبر عام ١٩٧٦ : توالت أجيال وأحداث كبرى فى تاريخ مصر ، وتغيرت أمور وشئون ، وقامت ثورات وحركات سياسية واجتماعية واقتصادية ، وثقافية وأدبية وشعرية ضخمة . وفى كل هذه التطورات كان الشاعر يشارك أمته آلامها وآمالها ، ويحدو للقافلة فى مسيرتها حداء الوطنية والحرية والدعوة إلى النضال والصمود .

ومصرية الصاحى ، أو قل : روحه المصرية الأصيلة ، هى إحدى خصائص شعره . وقد أشار إلى ذلك كثير ممن كتبوا عنه ، من أمثال عبد الله عفيفى ، وطاهر الطناحى ، ومحمد عبد القادر حمزة ، وعمر الدسوقى ، وغيرهم . وتتجلى هذه الظاهرة فى ألفاظ الشاعر وأسلوبه ومعانيه وأغراضه وأخيلته ، وفى دعاباته بوجه خاص .

وعندما تقرأ شعره تشعر أنك تعيش فى صميم زحام الحياة المصرية ، وتستمع لشاعر من صميم الشعب ، يعبر عن روح الجماهير ، وآلامهم وآمالهم ، فى بساطة ووداعة وهدوء ، مما يستحق من أجله أن يسمى « شاعر الشعب » . كما كان البهاء زهير (ـ ٦٥٦ هـ) مثلا خير ممثل لهذه الظاهرة فى القديم ،

ونرى مظهر ذلك عند شاعرنا الماحى فى قصيدته « إخوان كل زمان » . ومن أجل ذلك يجئ شعره صافيا هادئا سلسا ، كالماء الجارى ، حتى لا تكاد تشعر بفارق كبير بينه وبين نثره . وتلك سمة المطبوعين من الشعراء .

وما أكثر ما عبر الشاعر عن روح مصر فى وطنيته لأن مصر كانت دائما فى خلده وفكره . كما يقول :

لك يا مصر خاطرى وجنانى إن تمنيت كنت أغلى الأمانى

أنت رمز الخلود فى كل عصر

أنت من كنت معقل الشجعان

يوم تمضين لايجاريك شعب أو يباريك فى الحضارة ثان

ويعتد الناقد الكبير مصطفى السحرتى بقصيدة الشاعر « ذكريات الشاطئ » ويرى أنها جمعت زبدة فنه : غزارة عاطفة ، وسيولة موسيقى ، ومثلها قصيدته « فرعون يعاتب أبناءه » . و « قصة أحمس الأول » .

وفى رأيى أن قصيدته « عودة شاعر » ، التى نظمها بعد أن انطلق من إسار الوظيفة ، ونعم بالانطلاق والحرية ، واستقبل حياة جديدة . تمثل الجانب الفنى فى شعر الماحى خير تمثيل . وفى مطلعها يقول الشاعر :

هل آن للبلبل الصداح تغريد

أم حان للنغم المكبوت ترديد

واحسرتاه ، تقضى العمر أطيبه

يذويه همان : تنكيد وتسهيد

لا أكذب الله قد ضاع الزمان سدى

كما استوى حاسد فيه ومحسود

فهذه القصيدة القوية الثائرة ، المشبوبة العاطفة ، المحكمة النسج ، تمثل شاعرا لا يقل فى منزلته عن أعلام الشعر العربى القديم ، ولا ينزل عن مستوى المجددين المعاصرين من الشعراء .

وحسبنا طلاقتها ، وأصالة الطبع والموهبة وقوة الحياة ونبض الروح فى بنائها الفنى ، وتصويرها البديع لوجدان الشاعر ، ولأعماق نفسه وحسه .

وشعر الماحى صلة بين القديم والحديث ، كما يقول الشاعر عادل الغضبان ، ويؤكد ذلك كل النقاد والشعراء الأصلاء ، ومن بينهم : محمود عماد ، الذى يقول : إن شعره وسط بين القديم والجديد . كما يؤيده آخرون يرون أن الماحى استطاع أن يجمع بين القديم والحديث ، وأن يوفق بينهما ، ويمزج بين عناصرهما توفيقا ومزجا رائعا .

وشعر الماحى الغنائى والوطنى والإسلامى والاجتماعى ، ومراثيه وشعره الذاتى : كل ذلك مظهر كبير لشاعرية أكبر .

ولقد طبع ديوان الماحى ثلاث طبعات أنيقة احتوت كل شعره ، وفى الطبعة الأخيرة دراسات نقدية لشعره وشاعريته .

ثم صدر كتاب ضخم فى جزءين ، بعد وفاته بعنوان « الماحى الشاعر » عن رابطة الأدب الحديث ، ويحتوى على دراسات أدبية ونقدية معاصرة لأعلام الأدب والنقد والشعر فى مصر والعالم العربى عن الشاعر

وشاعريته وفى كتاب « خمسة من شعراء الوطنية فى مصر — الجزء الأول » الذى صدر عن المجلس الأعلى الفنون والآداب ترجمة للشاعر عبد الحليم المصرى بقلم الشاعر الماحى ، وتعد من أجمل الترجمات لسيرة شاعر .

وقد اشتركت مع الشاعر فى تأليف الجزء الأول من كتاب « شعراء مصر » ، وقد صدر عن الهيئة العامة للكتاب والمجلس الأعلى للفنـــون والآداب .

* * *

مدارس التجديد فى الشعر العربى المعاصر

١ — الشعر المعاصر تتمثل مفاهيمه فى كثير من التيارات الظاهرة والخفية التى توضح تطوره، وتصور ملامحه، وتترجم عن مضامينه وعن ابداعاته الفنية.

وأبدأ فأقول: إن الشعر المعاصر فى مصر يبـدأ ببدايات القرن العشرين كما يرى الدكتور طه حسين، أو بثورة ١٩١٩ كما يرى الدكتور محمد مندور، أو ببداية عام ١٩٢١ حيث ظهر كتاب الديوان للعقاد والمازنى كما ذهبت إليه فى بعض محاضراتى، أو ببداية عام ١٩٣٠ كما ذهبت إليه فى بعض آخر من محاضراتى.

والأرجح أن نعد ظهور كتاب الديوان عام ١٩٢١ هو بداية الشعر المعاصر فى مصر، لما أحدثه الكتاب من ظهور المدارس الشعرية.

وفى مقدمتها مدرسة الديوان، ثم مدرسة أبولو، بل لما أحدثه كذلك من سيادة المذهب الرومانسى وغلبته للمذهب المحافظ (الكلاسيكى) فى الشعر الذى كان يتزعمه شوقى وحافظ وتلاميذهما.

٢ — وقد ظهرت مدرسة الديوان الشعرية عام ١٩٢١ بظهور كتاب «الديوان» النقدى - ثم ظهرت مدرسة أبولو عام ١٩٣٣ بريادة الدكتور أحمد زكى أبو شادى..

وتبع ذلك ظهور شعر الطبيعة، والشعر الوجدانى والشعر التأملى والشعر الإنسانى، والشعر الغنائى.. من حيث كانت أهم الألوان

الذائعة عنـد شعراء مدرسة شوقى وحافظ هى : الشعر السياسى والوطنى والشعر الاجتماعى والشعر الدينى ، والشعر الوصفى والشعر الحكمى . . وقد تولدت المدرسة الواقعيـة فى الشعر بالبـذور الأولى لشعر الشاعر محمود أبو الوفا وأحمد محرم ومحـمد الأسمر ومحمود غنيم ، ثم توالى شعراء الواقعية جيلا بعـد جيل . . ومن بيئـة المدرسة الواقعية تولد الشعر الحر الذى يختلف الباحثون فى أول رائد له ، وفى اسمه ، وفى مضمونه اختلافا كثيرا . .

ونقصر حديثنا هنا عن مدرستين شهيرتين فى الشعر المصرى المعاصر ، كان لهما أثرهما الكبير فى مفاهيم الشعر فى مصر ، وفى تطوره ، وفى ريادته للشعر العربى وفى وقوفه على قـدم المساواة مع كل التيارات الشعرية العالمية المعاصرة . .

٣ — على أن التيارات الخفية التى أثرت فى الشعر المصرى المعاصر كثيرة .

وفى مقدمتها : الأصول التراثيـة للشعر العربى خاصة وللثقافـة الأدبية عامة ، وذيوع الثقافات الشعرية الحديثة العالمية فى مصر بالترجمة ، وبالاتصال المباشر بالآداب وبمدارس الشعر العالميـة إلى انتشـار حركة الرومانسية فى الشعر المعاصر التى قادت خطى التجديد والمجددين فى الشعر المصرى ، والتى تزعمت كل حركات الإبداع الفنى لشعرائنا المصريين ، والتى حملت عصا الحـوار بين العموديين من الشعراء المعاصرين وشعراء الشعر الحر الذين تحرروا من قيود العمودية ، ولاذوا

بأنفسهم ، وعكفوا على موسيقى خاصة لهم ينظمون منها شعرهم المتحرر من القافية وحدها حيناً ، ومن القافية والوزن حيناً آخر .

وأنتقل هنا إلى الحديث عن مدرسة الديوان — ثم عن مدرسة أبولو ، ففي دراستهما ما يوضح لنا مفاهيم الشعر المعاصر في مصر ، ومختلف تياراته.

* * *

١ — مدرسة شعراء الديوان

مدرسة الديوان من المدارس الشعرية المعاصرة والجديدة ، وهي المدرسة المجددة الابداعية — الرومانسية — وقد خلفت مدرسة البارودى وشوقى وحافظ ومطران المحافظة — الكلاسيكية — وتزعمت حركة التجديد فى الشعر ، وألحت فى الدعوة إليه .

أعلامها الثلاثة : عبد الرحمن شكرى ، وإبراهيم المازنى ، وعباس العقاد ، قاموا بدور كبير فى خدمة نهضتنا الشعرية ، وفى نشر حركة التجديد التجديد فى الشعر العربى الحديث . وتسمى « مدرسة شعراء الديوان » نسبة إلى هذا الكتاب النقدى المشهور الذى ألفه اثنان من هذه المدرسة ، وهما : العقاد والمازنى ، وأصدراه فى جزئين وبسطا فيه دعوتهما الجديدة ، ونقدا فيه حافظا وشوقيا والمنفلوطى ، كما نقدا زميلهما الثالث ، وهو عبد الرحمن شكرى ، وقد أحدث هذا الكتاب الصغير ضجة كبيرة فى الجو الأدبى والشعرى فى مصر والعالم العربى ، وكان له تأثيره على شوقى والمنفلوطى ، وغير من نظرية عمود الشعر القديمة . وعلى الرغم من أن شكرى فارق زميليه وتركهما وحدهما فى الميدان إلا أنه يعد رائد هذه المدرسة الأول ، وإمامها الذى اقتدى به زميلاه ، هؤلاء الثلاثة ثقافتهم إنجليزية ، ووجهتهم هو الأدب الإنجليزى .

وقد احتدم الخلاف بين المازنى وشكرى ، وأسرفا فى نقد بعضهما لبعض . فكتب المازنى فى « الديوان » يهاجم عبد الرحمن شكرى فى مقال نقدى بعنوان « صنم الأعيب » ، وكتب شكرى يهاجم فى مقدمة

الجزء الخامس من ديوانه زميله القديم المازنى ، كما كتب رمزى مفتاح كتابه المشهور « رسائل النقد » يهاجم فيه العقاد ، ويتهمه بالسرقة من شكرى .

وقد ذكر العقاد فى كتابه « شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى » أن ثقافة مدرسة شعراء الديوان كانت تتناول كل الثقافات العالمية عن طريق الأدب الإنجليزى ، وأنها استفادت من النقـد الإنجليزى ، فوق استفادتها من الشعر وكل فنون الأدب الأخرى ، وأنها أتخذت هازلت إماما لها فى النقد ، وكان مراجعها الأول هو مجموعة « الكنز الذهبى » ، وهى مختارات من الشعر الإنجليزى من عصر شكسبير إلى نهاية القرن التاسع عشر .

وقد قرر العقاد فى كتبه ومقالاته أن مدرسة الديوان هى أول حركة تجديدية فى الشعر الحديث ، وأنكر فضل مطران على حركات التجديد هذه ، وكانت ثقافة مطران فرنسية ، وذكر العقاد كثيراً أن شوقيا وحافظا تأثرا به وبمدرسة الديوان ، وقد يكون ذلك مبالغة لا غير .

ومن حيث كان مطران يتزعم الدعوة إلى الشعر الموضوعى ، كانت مدرسة الديوان تدعو إلى الجانب الذاتى أو الغنائى ، فشعرها هو شعر الوجدان الذى يعبر عن ذات الشاعر وشخصيته أبلغ تعبير . وكتب شكرى على صدر الجزء الأول من ديوانه الذى سماه « ضوء الفجر » هذا البيت من الشعر :

ألا يا طائر الفردوس إن الشعر وجـــدان

وأدخل المازنى فى تعريف الشعر العاطفة ، والخيال ، واتجه العقاد إلى شعر الفكرة ، ودافع عنه فى ديوانه « بعد الأعاصير » .

وقد صدر للعقاد فى حياته : الجزء الأول من ديوانه (١٩١٦) — الأربعة الأجزاء الأولى من ديوانه (١٩٢٨) — وحى الأربعين — هدية الكروان (١٩٣٣) — عابر سبيل (١٩٣٧) — أعاصير مغرب — بعد الأعاصير (١٩٥٠) .

ولقد حمل رواد مدرسة الديوان : العقاد وشكرى والمازنى لواء الشعر بعد شوقى ، وأعلنوا الثورة على الشعر القديم (الكلاسيكى) ، وكتبوا أعنف الفصول النقدية التى غيرت مسار الشعر العربى المعاصر .

وقد جمعت زمالة العلم والشباب فى مدرسة « المعلمين العليا » فى القاهرة فى أوائل القرن العشرين بين إبراهيم عبد القادر المازنى وعبد الرحمن شكرى وكانا طالبين من أنبغ الطلاب فى هذه المدرسة ، وربطت بينهما هذه الزمالة بصلات وثيقة ، ثم ألفت الحياة ووحدة الثقافة والاتجاه بينهما وبين العقاد ، وصار هؤلاء الثلاثة يمثلون فكراً أدبياً جديداً دعوا إليه ، وكتبوا حوله ، ودخلوا معارك نقدية كثيرة من أجله .

وكان هؤلاة الثلاثة مثالا رائعاً للفكر المصرى فى أوائل القرن العشرين ، فهم يمثلون النزعات الجديدة فى الشعر فى ذلك الحين ، وهم يقرأون للشعراء الرومانسيين الإنجليز من أمثال : ورد زورث ، وشلى ، وبيرون،

---

(١) عدد المساء الاسبوعى — نوفمبر عام ١٩٦٦

وكيتس وغيرهم ، ويتأثرون بهم فى منحاهم الرومانسى . وكانت بأيدى الشباب فى مصر آنذاك وفى عهد سطوة الاحتلال الإنجليزى وتشديد قبضته على التعليم ، آنذاك ، مجموعة شعرية مشهورة ، أسمها مجموعة « الكنز الذهبى » اختارها وجمعها مشرف إنجليزى فى وزارة المعارف المصرية حينئذ اسمه « فرانسيس بالجريف » وكان أستاذ الشعر فى جامعة اكسفورد ، وكانت هذه المجموعة رومانسية الطابع ، وقرأها شكرى والمازنى وتأثرا بطابعها ، وكان العقاد آنذاك صحافياً صغيراً يكتب مقالاته وقصائده فى جريدة الدستور التى كان يصدرها الكاتب المعروف محمد فريد وجدى ، وفى غيرها من الصحف ، وجمعت النزعة الأدبية بين العقاد وشكرى والمازنى أحبابا وأصدقاء ودعاة إلى التجديد .

وفى عام ١٩١٣ أصدر شكرى الجزء الثانى من ديوانه ، وكان قد مضى على صدور الجزء الأول منه أربع سنوات ، وكتب العقاد مقدمة هذا الجزء (الثانى) وأثنى على شاعرية صديقه شكرى وعلى موهبته ، وكتب المازنى فى العام نفسه عدة مقالات نشرها فى جريدة عكاظ الاسبوعية المصرية وازن فيها بين حافظ وشكرى ، وفضل صديقه شكرى على حافظ ، ومن أجل ذلك هاجم حافظ المازنى وعاد المازنى يكتب عن أخطاء حافظ الشعرية .

وفى العام نفسه أصدر المازنى الجزء الاول من ديوانه ، فكتب العقاد مقدمته ، يرحب فيه بالديوان ويرفع من شأن المازنى الشاعر واتجاهه الرومانسى الغالب على شعره .

وكان الاتجاه الرومانسى ذائعا فى الادب المصرى آنذاك بتأثير المنفلوطى

وكتاباته وبتأثير ذيوع أدب لامرتين وهوجو وغيرهم من الشعراء الغربيين فى محيط الأدباء المصريين آنذاك ، وبتأثير مطران وكتاباته كذلك .

وأكثر الثلاثة آنذاك من الدعوة إلى مذهبهم الجديد فى الشعر والنقد ، وبدأوا يطعمون شعرهم بالأخيلة والمعانى والصور الغربية ، ويكتبون فى وحـــدة القصيدة ويدعون إلى الإصالة وحذق الشاعر فى العاطفة والإحساس والتعبير ، وظهور شخصيته الفنية واستلهام الشاعر للطبيعة ، وتناوله لشتى الموضوعات الإنسانية ، ويحاربون التقليد وشعر المقلدين وشعر المناسبات الطارئة .

ومن حيث كان مطران ينادى بالشعر الموضوعى ، والجانب الوجدانى فى الوصف كان العقاد وزميلاه يدعون إلى الجانب الذاتى أو الغنائى منه . وخرجوا بنظرية جديدة أسموها « شعر الوجدان » . واتخذ شكرى شعاراً له على الجزء الأول من ديوانه ، الذى سماه « ضوء الفجر » هـذا البيت من شعره :

ألا يا طائر الفـــردو س إنّ الشعر وجدان

ومن نظرية الشعر الوجدانى عند هؤلاء الثلاثة انبثقت الدعوة إلى أن يكون الشعر تعبيرا عن ذات الشاعر وشخصيته ، وان يبعد عن المناسبات ، وأن يغلب عليه طابع الألم والأنين وحب الطبيعة وتصويرها ، وأن تسوده وحدة عضوية كاملة ، ويعبر عن تجربة شعرية عميقة ، وأدخل المـازنى فى تعريف الشعر العاطفة والخيال ، واتجه العقاد إلى شعر الفـكرة ، وأخـذ

المازنى على شعر شوقى ومدرسته تفكك الوحدة الموضوعية فى قصائدهم وإغراقهم فى شعر المناسبات ، وفى تقليد القدماء ، وصور ذاك فى مقدمة كتابه « شعر حافظ » الذى صدر عام ١٩١٥ ونقد فيه حافظا نقدا لاذعا ، ودعا المازنى لذلك إلى الرومانسية فى كتابه « الشعر : غاياته ووسائطه » الذى صدر فى هذا العام (١٩١٥) كذلك .

ويقول المازنى : كان شكرى أول من أخذ بيدى ، وسدد خطاى ، ودلنى على المحجة الواضحة ، وكان الجزء الأول من ديوان شكرى ، ويوميات العقاد بداية اقتحام المذهب الجديد فى الأدب ، وفاتحة الصراع بينه وبين المذهب القديم ، ومذهب شوقى وحافظ وأضرابهما كما يقول المازنى . . وعندما يقول ورد زورث إن الشعر انفعال يسترجعه الشاعر فى هدوء ، كان المازنى يعود به إلى مصدره الأول وهو العاطفة والوجدان . وكان شكرى كما يقول العقاد من أوائل من دعا إلى وحدة القصيدة ، وجدد فى موسيقى الشعر ، وألف القصة الشعرية العاطفية والاجتماعية والتاريخية ، بل كان شكرى من أوائل من مهدوا المذاهب النقدية الحديثة فى الأدب المصرى الحديث . . ويقول فيه الدكتور مختار الوكيل فى كتابه « رواد الشعر الحديث فى مصر » ـ ص ٤٦ » : « إن شاعريته تحتضن الحياة جميعها وتصور الوجود بأسره » . . وفى عام ١٩١٦ أصدر العقاد الجزء الأول من ديوانه ، وسماه فى الطبعات التالية « يقظة الصباح » وقصائده فيه تحتفى بالوحدة العضوية للقصيدة احتفاءا ظاهرا ، والعقاد حريص كل الحرص فى شعره على نظرية « الوجدان الشعرى ، فها هو ذا يقول فى الجزء من ديوانه ص ١٩٤ :

ظمآن ظمآن ، لا صوب الغمام ولا
عذب المدام ، ولا الأنداء ترويني

وهكذا صار المضمون الشعرى عند هؤلاء الثلاثة لابد وأن يتخذ فى الشعر الغنائى الطابع الوجدانى سواء استمده الشاعر من الطبيعة الخارجية أم من ذات نفسه العاطفية أوالفكرية .

ويرجع هؤلاء الثلاثة فى النقد إلى هازليت وما كولى وارنولد وشاسترى. وأغلب أراء العقاد فى النقد تعود إلى آراء وليام هازليت ومحاضراته عن الشعراء الانجليز ، ويشبهه العقاد كثيرا فى عنفه النقدى ، مع إيثار لمذهب النفسى فى النقد الذى كان يؤثره شكرى كذلك .

وخاض الثلاثة معركة الجديد مع شوقى وحافظ والمنفلوطى ، ولكن الأيام عادت ففرقت بينهم ، ففى عام ١٩١٦ انفصل شكرى عن زميله بعد أن استفحلت الوشايات بينهم ، وثارت إثر ذلك الخصومة بين ثلاثتهم ، فأخذ شكرى يعيب على المازنى انتحاله لبعض الأشعار الانجليزية بعامة ، ومما دون فى « الكنز الذهبى » بخاصة. وكتب فى مقدمة الجزء الخامس من ديوانه يندد بهذه السرقات الشعرية ، وتبادلا النقد على صفحات جريدة « النظام » ، وكتب شكرى يهاجم المازنى والعقاد ـ الذى انتصر لصديقه المازنى ـ معا على صفحات « عكاظ » فى مقالات نشرها عامى ١٩١٩ و ١٩٢٠ .

وفى عام ١٩٢٠ و ١٩٢١ أصدر العقاد والمازنى جزئين من كتاب جديد سمياه « الديوان » نقد فيه العقاد شوقياً والمنفلوطى ، ونقد المازنى

فيه حافظا وعبد الرحمن شكرى ، الذى سماه « صنم الألاعيب » ورماه بالشعوذة والجنون .

وأطلق اسم مدرسة شعراء الديوان على هؤلاء الثلاثة الشعراء على الرغم من أن الكتاب هو للعقاد والمازنى فقط ، وعلى الرغم من أنه يحمل هجوما على زميليهما شكرى .

وقد أحدث كتاب « الديوان » ضجة كبيرة فى العالم العربى ، وكان حافزا لظهور كتاب الغربال للشاعر المهجرى نعيمة ، الذى كتب العقاد مقدمته .

وبوازع من شوقى وشكرى كتب رمزى مفتاح كتابه « رسائل النقد » يهاجم فيه العقاد ويتهمه بالسرقة من شكرى .

ويذكر العقاد فى كتابه «شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى» ـ الذى كان ينشره مقالات فى صحيفة « الجهاد » القديمة التى كان يصدرها الصحفى المصرى محمد توفيق دياب :

إن ثقافة مدرسة شعراء الديوان تتناول كل الثقافات العالمية ، عن طريق الأدب الانجليزى ، وأنها استفادت من النقد الانجليزى ، واتخذت هازلت رائدا لها فى النقد ، وكان مرجعها الأول كتاب « الكنز الذهبى » الذى كان يحتوى على مختارات من الشعر الانجليزى من شكسبير إلى نهاية القرن العشرين .

ويقول العقاد : إن مدرسة الديوان هى أول حركة تجديدية فى الشعر الحديث متجاهلا مطران ودعوته التجديدية قبل مدرسة الديوان ،

وإن كان صوت مطران فى الدعوة إلى التجديد قبل مدرسة الديوان غير جهورى .

وفى رأى هؤلاء الشعراء الثلاثة أصحاب مدرسة الديوان ، أن شخصية الشاعر هى كل شىء فى الشعر ، وأن الشعر إذا كان يشعرك بعظمته وقوته فهو النموذج الذى يجب أن نحتذى به ، وكان ورد زورث الشاعر الانجليزى يقول ، وقد سئل عن شعر شاعر : «إنه ليس من الحتم فى شىء » ، يريد أن منزلة الشاعر مستمدة من شعره ، فإذا أصبح شعره على لسان النـاس ، ولا غنى لهم عنه ، ويتمثلون به فى مختلف جوانب حياتهم العامة ، فهو شاعر قد فرض نفسه على الشعر وعلى النقاد والناس .

ولا ريب أن هؤلاء الشعراء الثلاثة ، على اختلافنا معهم فى كثير من آرائهم فى النقد ، وأحكامهم على الشعر والشعراء ، قد فرضوا شعرهم على الحيـاة من حولهم ، وفرضوا شخصيتهم على الأدب الحديث والشعر المعاصر فرضا .

ويشاء الله أن يعود الصفا بينهم فيحل محل العداء والجفاء ، وكان ذلك عام ١٩٣٤ ، فيتصافون ويمد بعضهم يديه إلى البعض الآخر .

ويكتب العقاد والمازنى الفصول الطويلة عن شكرى ، اعترافا بفضله ، وأقر المـازنى بأستاذية شكرى له ، ونظم شكري قصيدته الطويلة « بعـــد الأخاء والعداء » ونشرها فى مجلة الرسالة وقال فيها :

حنوت على الود الذى كان بيننـا

وإن صـد عنـه ما جنينا على الود

وكنا على ما كان من قرب أنفس
كنهرين فى وادى الغضارة والورد

قد اقتربا مجرى وماء وعسجدا — من الشمس لألاء كلألأة الخلد
فياليت أنى قد غفرت جفاءه — ونبوته حتى يصد عن الصد
ويا ليت لى دنيا أبيع حطامها — بود أخ ، لو يشترى الود بالنقد

رحيق الحياة الود ، لو دام صفوه
وكالراح : أصفاه المعتق ذو العهد

وقد تحدث الشاعر عبد الرحمن شكرى فى الجزء الثانى من ديوانه عام ١٩١٣ فى قصيدة (نبوة شاعر) ، متنبئا ثائراً ناقدا المذاهب التقليديين فى شعرهم ، ولعله كان يقصد بهذا مدرسة الكلاسيكيين من أمثال شوقى وحافظ وأضرابهم . . . ويوضح شكرى مذهبه فى الشعر فى قصيدته (شكوى شاعر) التى نشرها فى الجزء الثانى من ديوانه أيضا حيث يقول :

قد طال نظمى للأشعار مقتدرا
والقوم فى غفلة عنى وعن شانى
قد أولعوا بكبير السن أو رجل
يبنى له الجاه ما يعلو به البانى
ولو سفلت إلى حيث القريض لقا
بين الأثافى وربع المنزل الفانى
ولو سفلت فقلت الشعر فى خبر
من السياسة فى زور وبهتان

ولو سفلت فقلت الشعر مبتذلا | فى وصف مخترع أو ذم أزمان
لقيل نعم لعمرى أنت من رجل | جم المحاسن من صدق وتبيان
وإنما الشعر تصوير وتذكرة
ومتعة وخيال غير خوان
وإنما الشعر مرآة لغانية | هى الحياة فمن سوء وإحسان
وإنما الشعر إحسان بما خفقت | له القلوب كأقدار وحدثان
قالوا أتيت بشعر كله بدع | فقلت نعم لعمرى قوله الثانى
من كل معنى يروع الفهم طائله
معنى من الحسان فى لفظ من الجان

ويشرح شكرى مذهبه فى الشعر فى مقدمته الطويلة التى كتبها مقدمة الجزء الخامس من ديوانه بعنوان (فى الشعر ومذاهبه) ، التى نادى فيها بوحدة القصيدة ودعا إلى حرية التعبير ، وطلاقة الأسلوب ، وتصوير الشعر لنفس الشاعر ، وتعبيره عن وجدانه تعبيرا صادقا مباشرا ، وأعلن الثورة على التقليديين ومذاهبهم . . وبهذا بدأ شكرى دعوته إلى التجديد فى الشعر المصرى الحديث الذى كان مطران ينادى به ، ويدعو إليه . . وبدأ شكرى بعد ذلك كفاح مدرسة شعراء الديوان فى سبيل التحرر الفنى للقصيدة ، وحرية الشاعر فى تعبيره ، ومن أجل تطوير أسلوب الشعر وأفكاره وموضوعاته ، وقد اتسم شكرى فى شعره بنزعة إنسانية عميقة تتجلى فى مثل قصائده : اليتيم ، وغلام مريض ، ورثاء عصفور ، وليتنى كنت إلها التى ينادى فيها بإنسانية الحياة والتفكير والعمل . . ويسود

شعر شكرى النزعة التصويرية العميقة ، التى تتجلى فى عمق حبه للطبيعة وروعة تصويره لها ، ولنقرأ قصيدة شكرى القصيرة « سحر الطبيعة » التى يقول فيها الشاعر :

كؤوس من النور هذى الزهو ... ر أم هى أخيلة الشاعر
وليست بحـــلم ولكنها ... أجل من الحلم الباهر
وما خلقت لفنون الخيـــا ... ل فتنـــة حسن لدى الخابر
وماء الحيـــاة ونبـــع الخلو ... د فى مائها السلسل المائر
وعشب قشيب وظل ظليل ... أدنيا أرى أم منى الساحر ؟
ومما يزيد رواء الزهـــور ... أذى العيش والقدر الجائر
لقد خفت أن تنطوى مثلما ... يزول الخيال عن الناظر
فأسلمت نفسى لسحر الخيـــال ... لأخلد فى حسنها الزاهر
وغبت عن الحس حس الوجود ... كأنى روح لدى العابر
كأنى نفقت إلى عالم ... سينشأ فى الدهر أو غابر
كأنى نقلت إلى جنـــة ... نأت عن شطا القدر الدائر
ومما يزيد رواء الزهـــور ... أذى والعيش والقدر الجائر

وإيمان شكرى بالطبيعة وحبه لها جزء أصيل من كيانه فقد ولد ونشأ على شاطىء البحر الأبيض المتوسط فى بور سعيد فى الثانى عشره من أكتوبر عام ١٨٨٦ ، وعاش فيها أيام عزلته سبعة عشره عاما من سنة ١٩٣٨ حتى عام ١٩٥٥ ، وأصيب فيها بالشلل النصفى فى أواخر ١٩٥٣ ، ثم ودعها فى أكتوبر عام ١٩٥٥ ليعيش مع أسرته فى الاسكندرية

حيث الشاطىء والبحر والجو الجميل إلى أن قضى حياته ، ولفظ أنفاسه الأخيرة فى منتصف ديسمبر عام ١٩٥٨ .

ويؤمن شكرى بالنزعات الإنسانية النبيلة ، ويعد من بين شعراء الديوان شاعر الحب والخير والجمال ، الحب الذى يقول فيه شكرى من قصيدته « ليتنى كنت إلها » .

أنا بالخير قائم وأخى
.. إبليس بالشر قائم والوعيد
.. كم سخرنا من خائف غير ندب
.. إنما الجبن آفة الرعديد
وطربنا من عابد العمل الجم
عظيم النواد غير قعيد
أنا والحب خالدان كلانا
ذو خيال ونشوة وجنود

ومن أجل رسالة الإنسانية والحب التى آمن بها شكرى ، ترك شكرى زميليه فى مدرسة الديوان ، ثم اعتزل الحياة .. وبين الحين والحين كان يرسل نفثات يراعه إلى مجلتى الرسالة والمقتطف ، وكنا منذ قامت رابطة الأدب الحديث نريد أن نزور شكرى فى عزلته ، لنعرب له عن إعجاب الجيل المعاصر به وبشعره ، ولنكبر جهاده فى سبيل أمته وشعبه ، وفى سبيل الأدب الذى أعزه ، والشعر الذى آمن به .. ولكننا كنا كمن يبحث عن السراب ، لم نعرف عنوان شكرى لنذهب إليه ، ثم ودع الحياة الوداع الأخير ..

وكتب نقولا يوسف فى جريدة المساء عن شكرى (١٢ أكتوبر ١٨٨٦ — ١٥ ديسمبر ١٩٥٨) يقول :

كانت وصيته الأخيرة . . المكتوبة بيده اليسرى غير المشلولة : « لاتدفنونى فى حجرة تقفل على كالسجن ، ولكن فى قبر يهال عليه التراب » .

والحق أنه لم يحب القيود . . فكان متحرر النفس من الرذائل . . متحرر العقل من الخرافات . . متحرر الشعر من أغلال الشكل والموضوع . . منطلق الخيال فى رحب الفضاء . . معتزلا قيود الوظائف . . مطالبا فى عهود الاحتلال والاقطاع بتحرير بلاده من ربقة الاستعمار والاستغلال .

أما السجن المادى فقد جنى على أبيه وعلى أسرته من قبل ، يوم اعتقل أعوان الخديوى ، والده ـ محمد شكرى عياد ـ لمناصرته الثورة العرابية وصداقته لعبد الله النديم . . فنجم عن هذا السجن وهذا التعطل . وعما كابده من الضيق والارهاق ، أن خرج أبناؤه غير أشداء العود . . كما جنى أعوان المحتلين على الشاعر فى حركة مصطفى كامل عام ١٩٠٦ لما وقف زميل الشاعر عبدالحميد بدوى « القاضى بمحكمة العدل الدولية » وألقى على الجماهير قصيدة عبد الرحمن شكرى الوطنية :

ثباتا فإن العــار أصعب محـملا

من الذل لا يفضى بنـا الذل للعار

فاتهموا الشاعر بالتحريض على الثورة وفصلوه من مدرسة الحقوق

بعد أن قضى بها عامين . ويلتحق الشاعر بمدرسة المعلمين بالقاهرة ، ويتخرج منها عام ١٩٠٩ ، ليرسل فى بعثة إلى جامعة شيفيلد ، ويعود فى فى خريف ١٩١٢ ليشتغل بالتعليم مدرسا فناظرا فمفتشا بالتعليم الثانوى . ولكنه يظل ينظم الشعر ، وينشر الأبحاث الأدبية والنقدية فى الصحف والمجلات .

وكان ديوانه الأول : « ضوء الفجر » قد ظهر عام ١٩٠٩ — والشاعر فى الثالثة والعشرين . . يقف على عتبة الحياة ، ولم يقتحم بعد ساحات مشاكلها وتجاربها . ومع ذلك فإن الروح الثائر المجرد الذى سطع فى تلك الباكورة كان باهرا ، فانبرى صديقه المازنى يقرظه فى الصحف .

وفى ١٩١٥ يظهر الجزء الثالث « أناشيد الصبا » ويتلوه كل من الرابع والخامس عام ١٩١٦ فالسادس عام ١٩١٨ ، فالسابع : « أزهار الخريف » عام ١٩١٩ ، ثم تشغله هموم المهنة التعليمية والتنقل فى البلاد عن جمع أشعاره فى دواوين أخرى بعد هذا التاريخ ، فيكتفى بنشر شعره وأبحاثه فى عديد الصحف والمجلات مرددا :

ألقى بشعرى فى حلق الزمان ولا

أبيت منه على هم وبلبال !

وقد أمكن جمع ما نشر من الشعر بعد عام ١٩١٩ فى الجزء الثامن .

وأما كتبه النثرية التى تضم فصوله وأبحاثه فى الأدب والنقد والدراسات النفسية والفلسفية ، فقد طبع منها فى حياته خمسة كتب وهى : «الثمرات»

و «حديث إبليس» و «الاعترافات» وقد ظهرت جميعا عام ١٩١٦ . .
ثم «الصحائف» — ١٩١٨ وقصة «الحلاق المجنون» — ١٩١٩
(بتوقيع ع . ش) ولم يطبع منها بعد خمسة أخرى كان قد نشر فصولها
فيما بين ١٩١٩ و ١٩٥٢ في مجلات الرسالة والثقافة والمقتطف والهلال
وغيرها . . وهي : كتابه «نظرات في النفس والحياة» وقد نشر
مسلسلا بمجلة المقتطف فيما بين ١٩٤٧ — ١٩٥١ . و «الشعر العباسي»
و «دراسات نفسية» و «بين القديم والجديد» و «أبحاث ودراسات
شتى» . ولم يضع الشاعر أسماء لهذه الكتب الأربعة الأخيرة التي
تفرقت فصولها في عدد من الصحف والمجلات . . وهكذا لم ينقطع
الشاعر عن نظم الشعر وكتابة الأبحاث حتى عام ١٩٥٢ يوم أرغمه
الشلل الذي أفلج نصفه الأيمن ولازمه إلى نهاية حياته على الكف عن
الإنتاج الأدبي وإن كان لم ينقطع عن كتابة الرسائل الخاصة بيده
اليسرى إلى أهله وأصدقائه وتلاميذه حتى نهاية حياته .

وما كاد الشاعر يعتزل وظيفته بوزارة التعليم عام ١٩٣٨ بعد أن
مارس التعليم نحو ربع قرن حتى رغب في شبابه أن يوفر على النقاد بعض
الجهد ، فأخذ ينشر فصول كتابه «الاعترافات» في الصحف ثم طبعها
عام ١٩١٦ في كتاب . كما نشر بعض الذكريات عن نشأته وعن
التعليم . . وراح يصحح بعض الأخطاء التي وقع فيها ناقدوه في
مقدمات دواوينه وفي مقالاته التي لم تجمع أو رسائله التي لم تنشر . .
ويشرح رأيه في الشعر ومذاهبه ، والشعراء وحقيقتهم ، كما عرف
إليهم الشعر والشاعر نظما ، وتوالت الأنباء عن سوء صحة الشاعر ، وحين

جدت الدولة فى تكريمه مات الشاعر العظيم ، وكأنما كان يتمثل ما قاله فى صدر شبابه وهو فى الغربة :

كنت مثل الفريد جىء به من	روضه والزمان غير ذميم
حيث وجه النهار جذلان بسا	م ووجه الظلام غير بهيم
ودواعى إلى الفنـــاء كثـار	من حبيب وموطن وحميم
أنزلوه فى منزل مثل بطن الأ	رض جهم السماء جهم الأديم

* * *

عبد الرحمن شكرى

(١٢ أكتوبر ١٨٨٦ — ١٥ ديسمبر ١٩٥٨)

من رواد المدرسة الحديثة — فى الشعر العربى ، وهى المدرسة التى خلفت المدرسة القديمة المتمثلة فى شوقى وحافظ واخوانهما والتى ورثت بلاغة البارودى ومذهبه والتى بقيت امتداداتها حتى اليوم ممثلة فى شعراء كثيرين لا يؤثرون بالشعر التقليدى المجدد شيئاً .

وكان شكرى من أكثر هؤلاء الرواد دعوة إلى التجديد، وحرصاً عليه وإيماناً به ولو أنه فى الدعوة إلى التجديد والجديد ، مطران ، وأبو شادى والمازنى والعقاد .

وقد تأثرت مدرسة أبو لو بمطران ، وعدوه رائد الشعر الجديد وإمامه ، وتأثر كثيرون بشكرى وعدوه عميدهم ورائدهم ، وفى مقدمة من تأثر به المازنى زميله فى مدرسة المعلمين العليا ، والذى كتب الكثير فى استاذية شكرى وأمامته :

وقد تعارف شكرى والمازنى والعقاد ، وجمعت ثلاثتهم روابط الأدب وصلات الشعر ، والدعوة إلى المذهب الجديد فيه ، وقدم العقاد الجزء الثانى من ديوان شكرى عام ١٩١٣ منوها بشاعريته وموهبته ، وكتب المازنى عام ١٩١٣ مقالات نشرها فى جريدة عكاظ الاسبوعية يوازن بين شكرى وحافظ ، ويفضل شكرى عليه . ثم فرقت الأيام بينهم ، فأخذ المازنى ينقد شكرى ، وكتب شكرى فى الجزء الخامس من ديوانه عام ١٩١٦ ينقد المازنى ويأخذ عليه سرقاته من الشعر الانجليزى ؛ وتبادلا النقد على صفحات

جريدة النظام ، ونقد شكرى المازنى والعقاد على صفحات جريدة عكاظ فى مقالات نشرها عام ١٩١٩ و ١٩٢٠ ، ونقد المازنى شكرى فى كتاب «الديوان» عام ١٩٢١ وسماه « صنم الألاعيب » ، ولم يعد الصفاء بينهما إلا عام ١٩٣٤ ، حيث عاد المازنى ينوه بشكرى ، ويقر بأستاذيته .

ومدرسة أبولو تقدر شاعرية شكرى ومواهبه وتعده ينبوعا من ينابيع الشعر الحديث ويتمثل تجديد شكرى فى الجزء الأول من ديوانه « ضوء الفجر » الذى صدر عام ١٩٠٩ وأعيد طبعه عام ١٩١٤ ، وفى الجزء الثانى منه (لآلىء الأفكار) الذى صدر عام ١٩١٣ ، والثالث (أناشيد) الصادر عام ١٩١٥ ، والرابع (زهر الربيع — ١٩١٦) والخامس (خطوات — ١٩١٩ والسادس (الأفنان — ١٩١٨) ، والسابع أزهار الخريف — ١٩١٩) — ثم أعيد طبع الديوان كله عام ١٩٦٠ بعد وفاة شكرى فى مجلد واحد على نفقة عبد العزيز مَخْيون ، وقدم له نقولا يوسف ، وأضيف إلى الأجزاء السبعة جزء ثامن جمع فيه شعره منذ عام ١٩١٩ حتى وفاة الشاعر .

كما يتمثل كذلك فى كتبه المطبوعة : الثمرات — الاعترافات — حديث أبليس — وقد ظهرت عام ١٩١٦ — وفى كتبه المخطوطة الباقية ، والتى نشرت فصولها فى المجلات .

وكان شكرى كما يقول العقاد من أوائل من دعوا إلى وحدة القصيدة ، ونظم من الشعر المرسل ، وعدد صور القافية وجدد فى بحور الشعر ، وألف القصة الشعرية العاطفية والاجتماعية والتاريخية . ولم يحفل بشعر المناسبات ، وشعره الغنائى المعبر عن ذات الشاعر وعاطفته صورة لتجديده . وكان شكرى من أوائل من مهد لمذاهب النقد الحديثة فى الأدب العربى ، وسار على المذهب النفسى وطبقه فى دراساته للشعراء القدامى والمعاصرين .

وكان من أوائل ما قرأه شكرى دواوين الشعراء القدماء وفى صدرهم ابن الفارض والمتنبى والمعرى والشريف وابن الرومى وقرأ للمحدثين وفى مقدمتهم البارودى . كما قرأ لشعراء الغرب وبخاصة شعراء كتاب « الكنز الذهبى » وشكرى أحد الشعراء المصريين من دعاة مذهب التجديد ، وهو شاعر غني للحياة ، وللانسان ، وللطبيعة ، وغني للحب والأمل ، والألم أيضا ، أجمل الأغنيات وأبدع القصائد .

منذ أكثر من نصف قرن ، ودع الشاعر الكبير ، عبد الرحمن شكرى الحياة ، عن اثنين وسبعين عاما ، لقى فيها كل صنوف الآلام والاضطهاد والعذاب ، ولم ينعم فيها بآماله وأحلامه ، التي كان يتطلع إليها فى فجر شبابه ، وقضى حياته فى غربة روحية رهيبة .

وكما يقول فى قصيدته « الشاعر البابلى المجهول » ، التي نظمها نحو عام ١٩٣٥ ، وهو فى التاسعة والأربعين عمره ، ويعني بهذا الشاعر المجهول نفسه :

يا غريب الدار عن عيني	ناظرا فى غابر الزمن
هل سمعت اسمى وما نقل	الركب عن شعرى وعن فطني
قد وصات الحسن أجمعة	لم أدع فى الكون من حسن
وبحثت النفس قاطبة	لم يفتني أيما شجن
سهر الأقوام واختصموا	فى منى راض ومضطغن
لم أدع معنى لذى أدب	عالق بالشعر مرتهن
فاستباح الدهر من أدبى	ما استباح الدهر من وطني

وكان كأنه يتنبأ بمصيره ، ومصير الأيام معه ، فى قصيدته « نبوءة

شاعر ، التى نظمها فى سن مبكرة ، وضمنها الجزء الثانى من ديوانه المنشور عام ١٩١٣ ، وفيها يقول :

لئن خاننى الذكر الجميل وملنى
مسامع قومى أو غلبت على أمرى

سيروى عظامى شاعر يدمائه
وينثر أزهار الربيع على قبرى

فيا ساكنا فى الغيب هذى نبوءتى
فذكر بها القوم الألى جهلوا قدرى

وإذا كان المثل الذى يضرب للشعراء ممن عاشوا غرباء عن زمنهم ، ومحرومين من كل تقدير من وطنهم ، يقول : « أدركته حرفة الأدب » .. فإن شاعرنا شكرى حقا قد أدركته حرفة الأدب ، فعاش محروما ، ومات محروما من كل إنصاف وذكر وعرفان بالجميل .

نحن فى عام ١٨٨٦ م فى مدينة بورسعيد ، مع أسرة مصرية ، من أصل مغربى ، هاجرت إلى مصر ، وأقامت فى بنى سويف حينا ، ثم انتقلت إلى بورسعيد ، المدينة الصغيرة ، المطلة على البحر الأبيض ، والتى لم يكن قد مضى على إنشائها أكثر من ربع قرن .. هذه الأسرة هى أسرة (عياد) ، ومنها كان حسن عياد ، ثم أبنه أحمد شكرى عياد ، وكان يشغل وظيفة رئيس قلم المرور بميناء بورسعيد ، كان ذا ثقافة عالية يجيد الفرنسية وآدابها إجادة تامة .. وأنجب أحمد شكرى ابنه محمداً ، الذى حصل على قسط كبير من

التعليم والثقافة ، والتحق بوظيفة فى الضبطية فى المدينة ، وكان وطنياً مخلصا محبا لبلاده ، عاصر ثورة عرابى ، وأيدها بكل قواه وطاقته ، حتى اعتقل بعد هزيمة الثورة ، وفصل من وظيفته ، وظل فى السجن بضع سنين حتى أفرج عنه ، وعاد إلى عمله ، معاونا للإدارة هنا فى هذا الثغر الجميل ، الذى ولد له فيه ابنه عبد الرحمن شكرى ، شاعرنا الخالد ، الذى كان ميلاده فى الثانى عشر من أكتوبر ١٨٨٦ ، فى بيت صغير فى شارع أفريقية .

ووجه محمد شكرى طفله الصغير عبد الرحمن شكرى شطر التعليم ، فنال الابتدائية من بور سعيد عام ١٩٠٠ وهو فى الرابعة عشرة من عمره .

وفى مشوار حياته الطويل تلقى تعليمه الثانوى فى مدرسة رأس التين الثانوية بالإسكندرية ، ونال منها شهادة البكالوريا عام ١٩٠٤ بتفوق كبير .

وخلال هذه الفترة كان شكرى كثير القراءة فى جميع ألوان الثقافة والأدب والشعر ، وكان لوالده مكتبة كبيرة حافلة ، أفاد منها شكرى إفادة عظيمة ، وفى الشعر قرأ المتنبى وأبا العلاء والشريف الرضى ومهيار وابن الفارض والبهاء زهيراً والبارودى ، والكثير مما وقع فى يده من دواوين الشعراء ، وقرأ للشعراء الانجليز وبخاصة شعراء المدرسة الرومانسية ، وفى مقدمتهم بايرون وشيلى ، وسواهما .

واتجه بعد ذلك إلى مدرسة الحقوق فالتحق بها عام ١٩٠٤ ، وفيها اتصل بالحزب الوطنى ، الذى قاده مصطفى كامل ، وعاش الحركة الوطنية آنذاك بكل أحداثها ، وفى عام ١٩٠٦ نظم قصيدته الوطنية الثائرة ، وهى

بعنوان « الثبات » والقاها زميله عبد الحميد بدوي نيابة عنه فى حفل وطني أقيم فى الأزبكية ، وفيها يخاطب الشباب يحثهم على الاستمساك بعرى الوطنية والنضال :

ثباتا فإن العار أصعب محملا
من الذل لايفضى بنا الذل للعار
سيهزمهم منا أبوة ماجد
وهمة خطار وعزمة مقدار

فاتهم الاحتلال الشاعر بالتحريض على الثورة ، وفصل من مدرسة الحقوق ، بعد عامين من بدء دراسته بها .

وفى كتابه « الاعترافات » الذى طبعه عام ١٩١٦ تصوير لطفولته ومسارح صباه ، وهو سيرة ذاتية له حتى سن الثلاثين . . وفيه وصف لآمال الشباب المصرى وآلامه آنذاك ، ولصموده فى معركة التحدى للاستعمار .

ووجهه مصطفى كامل ، بعد فصله من الحقوق ، إلى إكمال دراسته العالية فى مدرسة المعلمين العليا ، فالتحق بها عام ١٩٠٦ ، وكان مقرها يومئذ يدرب الجماميز ، فى مكان المدرسة الخديوية اليوم ، وكانت مدة الدراسة بها ثلاثة أعوام ،وكان من أساتذة اللغة العربية فيها :حسن الطويل — أحمد ضيف — محمد بك دياب ، عثمان أبو النصر — وسواهم .

وقد تخرج شاعرنا شكرى منها عام ١٩٠٩ ، وكان من أهم الكتب الدراسية فيها « مجموعة الكنز الذهبى » ، وهى مختارات من الشعر الإنجليزى الرومانسى ، وقد ألفها أحد أساتذة الشعر الانجليزى فى

كلية اكسفورد ، وكان منتدبا إلى المعارف المصرية ، ويعمل مشرفا فيها » ولما قرأ شكرى هذه الأشعار الرومانسية الحالمة أعجب بها وأثرت تأثيراً شديداً فى شاعريته .

ونظم شكرى فى هذه الفترة مراثيه فى الإمام فى محمد عبده والزعيم مصطفى كامل ، وفى قاسم أمين ، وفى هذه الفترة أيضا نشر أول دواوينه الشعرية عام ١٩٠٩ وهو ديوان « ضوء الفجر » الذى قال حافظ فيه :

أفي العشرين تعجز كل طوق
وترقصنا بإحكام القوافى
شهدت بأن شعرك لا يجارى
وزكيت الشهادة باعترافى
لقد بايعت قبل الناس شكرى
فمن هذا يكابر بالخلاف ؟

واختير شكرى بعد تخرجه من المعلمين العليا عام ١٩٠٩ فى بعثة دراسية إلى انجلترا ، فسافر إليها ، وأقام فيها ثلاث سنوات ، نال فى نهايتها شهادة جامعية عليا ، حيث كانت دراساته فيها فى التاريخ الدستورى والتاريخ القديم والحديث والجغرافيا والعلوم السياسية والاقتصادية والآداب الانجليزية .

وفى هذه المرحلة كتب قصائد جميلة رائعة مثل قصيدة الشتاء فى انجلترا ، وقصيدة شاعر فى الغربة ، التى يقول فيها :

كنت مثـل الغريد جيء به من
روضه والزمان غـير ذميم
حيث وجـه النهار جذلان بسـ
ـم ، ووجـة الظـلام غـير ذميم
ودواع إلى الغنـــــاء كثار
من حبيب وموطن وحمـيم
أنزلوه فى منزل مثـــل بطن الـ
أرض جهم السماء جهم الأديم
عاش يبـكى أيامه حيث صفو الـ
ـعيش سهل الجناب سهل النسيم
تقضى عيشه غريبـــا عن الأهـ
ـل قليـــل العزاء جم الهمـــوم
الهـــوى والحيـــاة واليأس والحـــز
ن وريب من الزمان خصومى

ونظم كذلك قصيدته حنين غريب وفيها يقول :

أنشقونى نسائم النيــــل و إنى
لعليـــل والنيـــل حاجـة نفسى
أنا فى بـــلدة يمر بها الدهــ
ـر حزينــا لا يستضىء بشمس

عاد و لشاعار إلى وطنه ، فبادر عام ١٩١٣ بطبـع الجزء الثانى

من ديوانه الذى سماه لآلىء الأفكار ، وقد صدر بمقدمة بقلم العقاد :

وعين الشاعر مدرسا للانجليزية بمدرسة رأس التين الثانوية التى درس فيها دراسته الثانوية ، وكان آنذاك فى السابعة والعشرين من عمره ، ودرس كذلك فى المدرسة العباسية الثانوية بالإسكندرية ؛ وكان من تلامذته فى الشعر : على أدهم ، ونقولا يوسف ، وعبد الحميد السنوسى ، وحسن فهمى . وسواهم من الأدباء والشعراء .

وفى هذه الفترة صدر له :

١ — ديوانه الثالث « أناشيد الصبا » عام ١٩١٥

٢ — « الرابع « زهر الربيع » « ١٩١٦

٣ — « الخامس « الخطرات » فى العام نفسه

٤ — كتابه « الاعترافات »

٥ — « « الثمرات »

٦ — « » حديث إبليس »

(وهذه كلها صدرت عام ١٩١٦)

٧ — ديوانه السادس « الافنان » عام ١٩١٨

٨ — كتابه « الصحائف » .

٩ — ديوانه السابع » أزهار الخريف » عام ١٩١٩

وهذه آخر دواوين الشاعر التى صدرت فى حياته ، وكان حينئذ فى الثالثة والثلاثين من عمره .

١٠ — كتابه «الحلاق المجنون» بتوقيع ع . ش .

وقد صدر عام ١٩١٩ أيضا .

ووقف الشاعر بعد ذلك عن طبع شيء من شعره ومن كتبه الأخرى، كما وقف كذلك الشاعر أحمد محرم عند الجزء الثاني من ديوانه الذى أصدره عام ١٩٢١، فى حين صدر الجزء الأول عام ١٩٠٨، ولم ينشر بقية شعره حتى وفاته عام ١٩٤٥، وكنت قد راجعت ديوان محرم المخطوط كاملا وأعددته للنشر وتسلمه المجلس الأعلى للفنون والآداب من أربع سنوات أو يزيد، وحتى اليوم لم ير النور.

شاهد شكرى عهد الاحتلال، والحرب العالمية الأولى، وحركة الزعيم مصطفى كامل، وثورة ١٩١٩، وعاش فى الاسكندريا مكبلا بقيود الوظيفة، يلتف حوله كل شعراء الثغر، من أمثال السنوسى وحسن فهمى وعبد اللطيف النشار وسواهم، وكانوا يلقونه عصر كل يوم فى حديقة الشلالات فى الثغر.

ومنذ عام ١٩١٩ انطوى الشاعر على نفسه، لأنه لم يجد من التقدير ما كان يستحقه، وعاش فى نطاق الوظيفة، أستاذا للغة الإنجليزية، فناظرا للمدرسة الثانوية فى الفيوم فالزقازيق، فحلوان، فالعباسية الثانوية، ثم مفتشا للغة الإنجليزية.

وفى عام ١٩٣٨ قدم استقالته من الوظيفة وهو فى الثانية والخمسين من عمره، وذلك بعد أن غلبه اليأس، واستولى عليه الحزن، وكما قال فى شعره فى مطالع شبابه من قصيدته «شكوى شاعر» التى ضمنها الجزء الثانى من ديوانه:

قد طال نظمى للأشعار مقتدرا

والقوم فى غفلة عنى وعن شانى

وقامت الحرب العالمية الثانية ، وخلالها وبين الحين والحين كان يرسل نفثات يراعه إلى الرسالة والمقتطف والهلال فتنشرها .

وترك الشاعر بعد استقالته من وظيفته الاسكندرية ، وعاد إلى بور سعيد ، ليعيش مع أسرة أخيه ، فى شقة متواضعة من منزلهم فى شارع أفريقية ، حيث مسرح طفولته ، ومهد صباه ، وحيث قضى فى مدينته وموطنه الأول سبعة عشر عاما (١٩٣٨ — ١٩٥٥) . وكان الشاعر أعزب لم يتزوج ولم ينجب .

وفى يناير من عام ١٩٥٢ أصيب بالشلل ، وكان فى الطريق إلى منزله يحمل بعض كتب اشتراها من بعض المكتبات ، ومع مرض السكر أيضا عاش الشاعر أواخر حياته الحزينة الصامتة .

وفى عام ١٩٥٥ انتقل الشاعر إلى الاسكندرية حيث قضى بها ثلاث سنوات عجاف ، مع بعض أقاربه ، وبلغه نبأ احتراق منزل أخيه ببور سعيد فى العدوان الثلاثى على المدينة عام ١٩٥٦ ، كما علم بأسر ابني أخيه الضابطين فى القوات البحرية المصرية . وتكاثرت الهموم على الشاعر ، حتى لبى نداء ربه ظهر يوم الاثنين الخامس عشر من ديسمبر عام ١٩٥٨ :

ولقد كنا فى رابطة الأدب الحديث والقاهرة على وشك أن نزور شكرى فى عزلته الرهيبة حين بلغنا اشتداد وطأة المرض عليه ، وكتبنا فى الصحف آنذاك نلفت نظر الدولة إليه ، وحين جدت الدولة فى تكريمه وعلاجه مات الشاعر .

مات شكرى وترك خمسة كتب لم تر النور بعد ، وكان قد

نشرها فصولا فيما بين عامى ١٩١٩ ، ١٩٥٢ فى المقتطف والرسالة والثقافة والهلال ، وهى :

١ — نظرات فى النفس والحياة ، نشر مسلسلا بالمقتطف (١٩٤٧ — ١٩٥١)

٢ — الشعر العباسى .

٣ — دراسات نفسية .

٤ — بين القديم والجديد .

٥ — أبحاث ودراسات شتى .

ولعلنا لو قرأنا قصيدة شكرى « ظالمى ما أعدلك » ص ٢٥٦ من الديوان لرأينا فيها خصائص مذهبه الشعرى كاملة . . يقول شكرى :

ظالمى ما أعدلك   فاقض إن الحكم لك
أى ذنب جئته   عن ودادى نقلك
أى أمر طارق   عن دعائى شغلك
قد بدا لى يا حبيبى   منك أن لا قلب لك
إن يكن فيك جمال   إن شعرى جملك
ليت لى يا قلب قلبا
طائعا لى بدلك
ما أظن الحب إلا   بالعنا بى أجلك

وترجع أهمية شكرى فى الشعر المصرى الحديث إلى أنه هو البدء

الحقيقي للمدرسة الحديثة ، وللحركة الرومانسية فى الشعر المعاصر ، وأنه منذ كان طالباً فى مدرسة المعلمين العليا ، كان يدعو إلى القيم الشعرية الرومانسية الأصيلة ، من تجربة شعرية ، ووحدة عضوية ، وحرص على الموسيقى ، وعلى أن تكون القصيدة الغنائية ذاتية الطابع ، وجدانية المشاعر ، ممثلة لشخصية الشاعر الفنية تمام التمثيل ، ومن ثم نادى بنظرية جديدة ، أسماها شعر الوجدان » ، وجعلها شعاراً له كتبه على الجزء الأول من ديوانه الذى سماه « ضوء الفجر » ؛ ويتمثل هذا الشعار فى بيته المشهور :

ألا يا طائر الفردوس إن الشعر وجـــدان

واحتفل شكرى فى شعره بالقصة الشعرية ، وبالطبيعة ، وبالألم والانين والحنين ، وبكل أدوات الرومانسية ، وعناصرها الفنية فى القصيدة الشعرية .

وكانت المدرسة الرومانسية هذه هى التي قامت فى وجه مدرسة البعث التى قادها شوقى وحافظ وأضرابهما ؛ ودعتها إلى أن تخفف غلواءها فى شعر النماذج ، وأن تبدأ مرحلة شعر الوجدان ، لتكون القصيدة تعبيراً عن ذات الشاعر وشخصيته ، فيبعد بها عن المناسبات الطارئة ، وعن التقليد الضعيف للقدماء .

وشخصية الشاعر هى كل شىء فى الشعر عنـــده ، فإذا كان الشاعر يشعرك بعظمته وقوته فهو النموذج الذى يجب أن تحتفى به ، يقول شاعرنا : « الشعر ما أشعرك بعظمته وجعلك تحس عواطف النفس إحساساً شديداً :

والمضمون الشعرى عنده لابد أن يتخذ فى الشعر الغنائى الطابع الذاتى ، سواء استمده الشاعر من الطبيعة أم من ذات نفسه العاطفية أو الفكرية .

والأصالة ، وصدق الشاعر فى عاطفته وشعوره ، وتناوله لشتى الموضوعات الإنسانية ، وهيامه بالطبيعة ، وبعــده عن الزيف والتقليد ، وعن شعر المناسبات ، وتلقيح القصيدة بالمعانى والأخيلة والصور الغربية ؛ كل ذلك جزء لايتجزأ من بناء القصيدة .

وأهم البواعث عنده فى نظم الشعر هو الحب والطبيعة والبطولة والخواطر والتأملات والشعور بشخصية الفنان وحريته التعبيرية .

ويشرح شكرى مذهبه فى الشعر فى كلمة كتبها مقدمة للجزء الخامس من ديوانه ، بعنوان « فى الشعر ومذاهبه » والتى نادى فيها بطلاقة الأسلوب ، وشخصية الشاعر ، وتعبيره عن ذاته تعبــيرا قويا مباشرا ، كما نادى بوحدة القصيدة ، ونظم الشعر المرسل ، وعدد صور القافية ، وأعلن الثورة على التقليديين ومذاهبهم .

وبهذا بدأ شكرى دعوته إلى التجديد فى الشعر المصرى الحــديث ؛ وبدأ بذلك كفاحاً طويلا فى سبيل التحرير الفنى للقصيدة ، ومن أجل تطوير أسلوب الشعر ومضمونه وموسيقاه .

وكان شكرى يجمع بين التيار العاطفى والشاكى المتشائم المتمرد ، والتيار الفكرى المسترسل الهادى ، فزاوج بين الجانب التأملى وبين التأثرات العاطفية الوجدانية .

وكان يكرر قوله فى الاختفاء بالوحدة العضوية للقصيدة : ينبغى أن ننظر إلى القصيدة من حيث هى شىء فرد كامل ، لا من حيث هى أبيات مستقلة ، ذلك لأن قيمة البيت تأتى من كونه عضوا فى جسم القصيدة الكلى .

على أن المذهب الرومانسى الذى دعا إليه شكرى كان له إرهاصات كثيرة ظهرت فى شعر مطران ، ونثر المنفلوطى ، وفى الشعر الغربى الذى ترجم إلى العربية ، وبخاصة شعر لامرتين وهوجو وبايرون وسواهم .

على أن النقاد جميعاً يعترفون لشكرى بمنزلة الزعامة والريادة فى الحركة الشعرية التجديدية المعاصرة .

يقول العقاد عنه : إنه من أوائل من دعا إلى وحدة القصيدة ، وجدد فى موسيقى الشعر . وألف القصة الشعرية العاطفية ، والاجتماعية والتاريخية بل كان شكرى من أوائل من مهدوا للمذاهب النظرية الحديثة فى الأدب المصرى الحديث .

ويقول عنه المازنى : كان الجزء الأول من ديوان شكرى ويوميات العقاد بداية اقتحام المذهب الجديد فى الأدب ـ يريد المذهب الرومانسى ـ . كما كان فاتحة الصراع بينه وبين المذهب القديم ، مذهب شوقى وحافظ وأضرابهما .

ورأى فيه مندور أنه شاعر التأمل النفسى والاستبطان الذاتى .

ويقول عنه أبو شادى إنه شاعر الاصالة والعبقرية الشعرية ، ويسمى

مدرسة الديوان مدرسة شكرى ، فيقول : مدرسة شكرى التى انتسب إليها المازنى والعقاد مدرسة شعرية متحررة منوعة ، ولكن البون شاسع بين الأستاذ والتلميذ ، فشكرى شاعر سابق لزمنه ، وزعيم مدرسة ماتت لما ابتعدت عن صاحبه ووحيه المباشر ، ولكنه بنى مفاخر لن تموت للشعر العربى الحديث .

ونوه به السحرتى ، وجميع نقاد مدرسة أبولو يعدون شكرى رائداً لمدرسة الديوان ويعترفون بفضله على المازنى والعقاد .

يقول عنه رمزى بضاح فى كتابه « رسائل النقد » : إنه شاعر عظيم الموهبة ، وهو الزعيم الأكبر ، ومنشىء المدرسة الحديثة فى الشعر العربى .

ويقول عنه د . مختار الوكيل فى كتابه « رواد الشعر الحديث فى مصر » : إن شاعريته تحتضن الحياة جميعها ، وتصور الوجود بأسره ، لأنه شاعر عبقرى ، لا يقف دون التعبير عن شعوره حيال الكون كله .

وكتبت عنه فى كتابى « قصة الأدب المعاصر » ، وفى الجزء الثانى من كتابى « الأدب العربى الحديث ومدارسه » ، فقلت فيما قلته عنه : شكرى من رواد المدرسة الحديثة فى الشعر العربى ، بل هو أشهر الرواد ، وأكثرهم دعوة إلى التجديد ، وحرصا عليه ، وإيمانا به . وزملاؤه فى الدعوة إلى التجديد العقاد والمازنى . . وممن لهم فى الدعوة التجديدية حظ كبير أيضاً مطران وأبو شادى .

وأهم حدث أدبى فى حياة شكرى هو دعوته إلى المذهب الرومانسى الجديد فى الشعر مع زميليه العقاد والمازنى .

وقد نشأت من آرائهم مدرسة جديدة في الشعر المصرى ، سميت باسم « مدرسة الديوان » نسبة إلى كتاب الديوان الذى أصدره العقاد والمازنى فى جزءين عام ١٩٢١ ، وبسطا فيه آراء المدرسة فى الشعر والنقد . وقد تزعمت هذه المدرسة حركة التجديد فى الشعر الحديث ، وألحت فى الدعوة إليه . ويؤكد العقاد أن « مدرسة الديوان » هى أول حركة تجديدية فى الشعر الحديث .

ويذكر العقاد فى كتابه « شعراء مصر وبيئاتهم » أن ثقافة مدرسة شعراء الديوان كانت تتناول كل الثقافات العالميـــة عن طريق الأدب الإنجليزى ، وأنها استفادت من النقد الإنجليزى استفادتها من الشعر وكل فنون الأدب الأخرى ، وأنها اتخذت هازلت إماما لها فى النقد ، وكان مرجعها الأول « مجموعة الكنز الذهبى » وهى مختارات مشهورة من الشعر الإنجليزى من عصر النهضة إلى نهاية القرن العشرين .

وقد تعرف المازنى بشكرى فى مدرسة المعلمين العليا ، وكان شكرى يسبقه فيها . وكتب المازنى فى جريدة السياسة (٥ أبريل ١٩٣٠) مقالا يقول فيه :

. غير زمن كان فيه شكرى محور النزاع بين القديم والجديد ، ذلك أنه كان فى طليعة المجددين ، إذا هو لم يكن الطليعة والسابق إلى هذا الفضل فقد ظهر الجزء الأول من ديوانه وكنا يومئذ طالبين فى المعلمين العليا ، وكانت صلتى به وثيقة ، وكل منا يخلط صاحبه بنفسه ، ولم أكن يومئذ إلا مبتدئا على حين كان هو قد انتهى إلى مذهب معين فى الأدب ،

ورأى حاسم فيما ينبغى أن يكون عليه ، ومن اللؤم الذى أبجانى بنفسى عنه أن أنكر أنه أول من أخذ بيدى ودلنى على المحجة الواضحة .

ثم تعرف المازنى بالعقاد فى جريدة الدستور التى كان يصدرها آنذاك المفكر الكبير محمد فريد وجدى ، وكان العقاد أحد محرريها ، وقاد المازنى العقاد إلى شكرى وعرفه به . ومن ثم أصبح هؤلاء الثلاثة إخوة فى المذهب وفى الفكر وفى الحياة ، وأخذوا يدعون إلى مذهبهم الشعرى ، ولا يكادون يفترقون ، ولا يكفون عن القراءة والكتابة .

وأخذ المازنى والعقاد يستزيدان من اللغة الإنجليزية على يدى صديقهما شكرى ، وينعمان فى آداب الغرب والشرق ، فى إعجاب شديد برائدهما شكرى وبثقافته الواسعة . ولم يلبث هؤلاء الثلاثة أن صاروا مثالا رائعاً للفكر المصرى فى أوائل القرن العشرين ، فهم يمثلون النزعات الجديدة فى الشعر ، وهم يميلون إلى الرومانسية وشعرائها ، ويقرأون الشعراء الرومانسيين الإنجليز ، ويتأثرون بهم تأثراً شديداً ، وهم يتخذون من مجموعة الكنز الذهبى زاداً فنياً لهم فى الشعر .

وصدر الجزء الثانى من ديوان شكرى عام ١٩١٣ ، وفى صدره مقدمة للعقاد أثنى فيها على شاعرية شكرى وموهبته الفياضة .

وكتب المازنى أيضا عدة مقالات نشرها فى جريدة عكاظ الأسبوعية ، وازن فيها بين حافظ وشكرى وفضل شاعره شكرى على حافظ . ومن أجل ذلك هاجم حافظ المازنى . وعاد المازنى يكتب عن

أخطاء حافظ الشعرية ، وذلك مما نشره فى كتابه « شعر حافظ » الذى صدر عام ١٩١٥ .

وفى عام ١٩١٣ أصدر المازنى الجزء الأول من ديوانه وكتب العقاد مقدمته كذلك ، رفع فيها من شأن الديوان ، ورحب بظهوره ، وباتجاهه نحو الرومانسية . وفى عام ١٩١٦ ظهر الجزء الأول من ديوان العقاد .

وخاض الثلاثة معركة الجديد ، مع شوقى وحافظ والمنفلوطى .

ولم تلبث الأيام أن فرقت بينهم ، فاعتزلهم شكرى ، وإن كان يعد دائما الرائد الأول لمدرسة شعراء الديوان ، وإمامها الذى اقتدت به .

وهاجم شكرى المازنى ورماه بسرقة شعره من شعراء المدرسة الرومانسية الانجليزية ، وبخاصة شعراء « مجموعة الكنز الذهبى » . وذلك فى مقدمة الجزء الخاص من ديوان شكرى .

وفى عام ١٩٢١ أصدر المازنى والعقاد الديوان وهو كتاب نقدى صغير .

وصدر فى جزءين ، نقدا فيه أحمد شوقى وحافظا ، وهاجم العقاد شعر شوقى هجوما شديدا لأنه ليس فيه شىء من تصوير النزعات الإنسانية ، وليس تعبيرا عن ذات الشاعر ، وليست القصيدة عنده ذات وحدة عضوية واحدة .

وهاجم المازنى شكرى فى الديوان هجوما شديدا . وهاجم رمزى مفتاح الكتاب والعقاد ورماه بالسرقة من شكرى .

وفى عام ١٩٣٠ عاد المازنى إلى الكتابة عن شكرى ، وفضله على شعراء الشعر الحديث ، فكتب فى جريدة السياسة (عدد ٥ إبريل ١٩٣٠)

يعترف بفضل شكرى . كما كتب بعد فى جريدة البلاغ (عدد أول سبتمبر ١٩٣٤) يقول :

كنا زميلين فى مدرسة المعلمين العليا ، ولكنه كان ناضجا وكنت فجا ، وكان أديبا شاعرا واسع الاطلاع وكنت جاهلا ضعيف التحصيل قليل العقل ، تناول يدى وشد عليهما ، وأبت عليه مروءته أن يتركني ضالا حائرا أنفق العمر سدى ، وأبعثر فى المعيب ما لعله كان فى نفسى من الاستعداد .

وكنت أقرأ ابن الفارض والبهاء زهيرا ، ففتح عيني على الثقافة العالية ، وعلى أعلام الأدب الغربى ، وصرفني عن المقلدين ، فى أدب كل أمة ، وأغرانى بأصحاب المواهب والابتكار ، وصحح لى المقاييس ، وأقام الموازين الدقيقة ، وفتح عيني على الدنيا وما فيها .

وكنت كالأعمى لا أنظر ، وإذا نظرت لا أرى ، وكان لفرط أدبه يتوخى معى سلوك الشمر ، ولا يتعالى تعالى الأستاذ على التلميذ ، ولو أوردت أن أتقصى لما فرغت : فأنا مدين له بكل ما أعان على ما صرت إليه . أقول ذلك مباهيا شاكرا فضل الله على أن لم يضيعني ، وأن كتب لى نعمة الاتصال بشكرى ، وإنى لأرجعه البصر فى حياتى وأتساءل : ماذا عسى كنت أكون لولاه ، فلا أجد عندى لهذا جوابا ، وأدير عيني فى نفسى وأبحث عن نزعة لم يكن هو غارس بذرتها ، إذا لم يكن هو الموحى بها ، فلا اهتدى .

وأثر ذلك كتب شكرى قصيدته المشهورة بعد الإخاء والعداوة ونشرها فى الرسالة ، وفيها يقول :

حنوت على الود الذى كان بيننا
وإن صد عنه ما جنينا على الود

فياليت أنى قد غفرت جفاءه
ونبوته حتى يصد عن الصد

وفى عام ١٩٥٩ بعد وفاة شكرى كتب العقاد يقول :

عرفت شكرى قبل خمس وأربعين سنة ، فلم أعرف قبله ولا بعده أحدا من شعرائنا وكتابنا أوسع اطلاعا منه على أدب اللغة العربية وأدب اللغة الإنجليزية ، وما ترجم إليها من اللغات الأخرى .

وكان مع سعة إطلاعه صادق الملاحظة ، نافذ الفطنة — ، حسن التخيل ، سريع التمييز بين أنواع الكلام . فلا جرم أن تهيأت له ملكة النقد على أوفاها ، لأنه يطلع على الكثير ويميز بين ما يستحسنه وما يأباه » .

وفى العاشر من أغسطس ١٩٤٩ توفى المازنى .

وفى الخامس عشر من ديسمبر ١٩٥٨ توفى شكرى .

وفى الثانى عشر من مارس ١٩٦٤ توفى العقاد .

وما زلت أذكر قبل وفاة شكرى بشهور أنه بلغنا فى رابطة الأدب الحديث أن المرض اشتد بالشاعر ، وأنه لا يجد ما ينفقه على العلاج ، فقدنا حملة صحفية لعلاج شكرى على نفقة الدولة ، وحين تحركت الأجهزة الحكومية لعلاجه فى إحدى المستشفيات الحكومية ، وهو مستشفى المواساة بالثغر ، كان الأجل قد رحل بالشاعر إلى دار الخلود .

* * *

عباس محمود العقاد

(٢٨ يونيو ١٨٨٩ — ١٢ مارس ١٩٦٤)

عبقرى موهوب ، وأديب مفكر ، وناقد ذكى ، وكاتب عصامى ، وإمام من أئمة الأدب والشعر فى العالم العربى ، كان شاعراً مجدداً يجمع بين قوة العاطفة وعمق الفكرة . ظهر فى الميدان الأدبى والفكرى والسياسى فى عصر أوائل القرن العشرين ، واشترك فى مختلف الحركات الوطنية والفكرية ، ونال الصدارة فى كل مجال وميدان .

ظهر فى سنة ١٩١٣ الجزء الثانى من ديوان عبد الرحمن شكرى وفيه مقدمة قيمة بقلم الأستاذ العقاد عن الشعر ومزاياه ، يقول فى مستهلها عن الشعر : « ليس الشعر لغوا تهذى به القرائح فتتلقاه العقول فى ساع كلالها وفتورها ، فلو كان كذلك لما كان له هذا الشأن فى حياة النفس ، لا بل الشعر حقيقة الحقائق ولب اللباب والجوهر الصميم من كل ماله ظاهر فى متناول الحواس والعقول . وهو ترجمان النفس والناقل الأمين عن لسانها » .

وفى عام ١٩١٤ ظهر الجزء الأول من ديوان المازنى ، وفيه مقدمة رائعة بقلم العقاد بعنوان « الطبع والتقليد » يقول فى أولها : « حسب بعض الشعراء اليوم أنه ليس على أحدهم أن أراد أن يكون شاعرا عصرياً إلا أن يرجع إلى شعر العرب بالتحدى والمعارضة ، فان كانت العرب تصف الأبل والخيام والبقاع ، وصف هو البخار والمعاهد والأمصار ،

وأن كانوا يشببون في أشعارهم بدعد ولبنى والرباب ، ذكر أسماء من أسماء نساء اليوم ، ثم يحور من تشبيهاتهم ، ويغير من مجازاتهم بما يناسب هذا التحدى ، فيقال حينئذ إن الشاعر مبتدع عصرى ، وليس بمقلد قديم ، وهذا حسبان خطأ ، فما أبعد هذا الشعر عن الابتداع ، والأخلق به أن يسمى الابتداع التقليدى ، لأنه ضرب من ضروب التقليد . فلولا أن شاعرا سبق هؤلاء الشعراء لما استطاعوا أن يعارضوه » .

وفى سنة ١٩١٦ وكان قد ظهر الجزء الأول من ديوان العقاد الذى أسماه فى الطبعات التالية « يقظة الصباح » ، وأذكر أنى أدمنت قراءته حتى استظهرت أكثر قصائده ، وقد امتازت قصائد هذا الديوان بما كان يسميه العقاد « الوحدة العضوية » فكانت القصيدة تقوم على موضوع واحد تتناوله من شتى نواحيه ، فى وحدة مسلسلة ، وترابط يكاد يكون منطقيا ، على خلاف ما ألفناه فى الشعر القديم وفى شعر الشعراء الذين كانوا يتبعون فى نظم قصائدهم طرائق القدماء ، وقد أعجبنى هذه الطريقة فى ديوان شكرى وديوان المازنى وديوان العقاد . ولا شك أنهم تأثروا بأدب الغرب فى اتباع هذه الطريقة وبخاصة فى العهد الذى ساد فيه الأدب الرومانسى .

وظهرت الحركة القومية التى قادها المرحوم سعد زغلول ، وكان العقاد فى طليعة الكتاب الوفديين المناضلين عن مبادىء الوفد وخطته . فقد ناصره العقاد بقلمه ووقف بالمرصاد لخصومه ، وبرز فى الجدل السياسى ، والحملات الحزبية ، ولم يحل ذلك دون بذله الجهود الأدبية ، فظهر فى سنة ١٩٢١ الجزء الأول والثانى من كتاب الديوان ، وقد اشترك معه فى

تحريره الأستاذ المازنى ، وهاجم العقاد فى كتاب الديوان شعر شوقى هجوما عنيفاً ، ونقده نقدا مريرا . . لم يكن دائما البادىء . بل كان موقفه موقف المدافع الذى يرد الهجوم، وكان شوقى لا ينفك يغرى به صاحب جريدة عكاظ الشيخ فهيم قنديل ، فكان لا يخلو عدد من أعدادها من نقد للعقاد أدخل فى باب الهجاء والسباب منه فى باب النقد الأدبى .

وكان فى العقاد حدس الشاعر ورهافة حسه ودقة ملاحظة العالم وقدرته على التحليل والتعليل وعمق الفيلسوف ونفاذ نظراته وسعة إحاطته . وكان العقاد يلتزم القصد فى حياته ويتحرى الاعتدال فيعيش فى كتبه ومطالعاته . ولكنه مع ذلك لا ينسى نصيبه من الدنيا ولكن فى غير إسراف ، وكان حريصاً على حياته وصحته ووقته ولم يكن بخيلا بماله . وكان يعتز بلغته ودينه وعروبته ، ومع ذلك كان واسع الافق إنسانى النظرة ، يكتب عن غاندى ويشيد به ويكتب عن عمر بن الخطاب وأبى بكر الصديق ، ويعجب بالزعيم الباكستانى محمد على جناح كما يعجب بمحمد فريد وسعد زغلول ، ويكتب عن عبقرية محمد كما يكتب عن عبقرية المسيح .

وكان يؤمن بالحياة والعظمة والبطولة ، ويشك فى الذين ينتقصون مواقف الأبطال ويسفهون أحلامهم ، ويحبطون بواعثهم بالريب ، أو يردونها إلى التماس المصلحة الشخصية وطلب المجد الذاتى .

وكان أدب العقاد وشعره كذلك سواء فيما قدمه من خواطر إنسانية أو فيما جعله صورة كذلك لمجتمعه وبيئته .

وقد استغل هذا المضمون فى شعره الوطنى والاجتماعى ، فهو عندما أراد أن يدعو مواطنيه إلى العزة والصمود والاستقامة والكرامة لم يقف

موقف الواعظ ، ولكنه وقف موقف الأديب الثائر فصور مجتمعه وكأنه متشائم من الأوضاع التي يراها ، فالمائعون المتملقون يتولون أسمى الوظائف ، وأعيان الدولة جماعة ضعفت نفوسهم وقلت علومهم وفشت خستهم ودناءتهم وكثر نفاقهم وتملقهم وجثوا خاضعين تذللا ، واللئام قد بلغوا أسمى الدرجات فكانهم القرود وقد اعتادوا التسلق ، فهو الذي يقول في قصيدة جعل عنوانها « زماننا »[1] .

فشت الجهالة واستفاض المنكر ... فالحق يهمس والضلالة تجهر

والصدق يسرى فى الظلام ملثما ... ويسير فى الصبح الرياء فيسفر

إنا لفى زمن كأن كباره ... بسوى الكبائر شأنها لا يكبر

من كل ذى وجه لو آن صفاته ... تندى لكان من الفضيحة يقطر

بئس الزمان لقد حسبت هواءه ... دنسا وأن بحاره لا تطهر

وكأن كل الطيبات يردها ... فيه إلى شر الأمور مدبر

سبق اللئام إلى ذراه فقهقهوا ... إن القرود لبالتسلق أخبر

ما نيل فيه مطلب الا له ... ثمن من العرض الوفير مقدر

وبقدر ما بذل امرؤ من قدره ... يجزى فأكبر من تراه الأصغر

كان العقاد مولعا بالتجديد والابداع والابتكار ، وقد دفعه هذا الولع الى الاسهام فى خلق مدرسة شعرية وكذلك مدرسة شعراء الديوان تعد أساساً للادب الرومانسى فى الأدب العربى .

وأهم البواعث عند هاته المدرسة فى نظم الشعر هو الحب وصدق العاطفة

---

(١) الجزء الأول من ديوانه صفحة ١١١

وجمال الطبيعة وتحبيب القيم المعنوية والاعتزاز بالنفس وتخليد مظاهر البطولة وإبراز الخواطر والتأملات ، فهى قد حررت الشاعر من ربقة العبودية وأبعدته عن التملق والتكسب .

وكان العقاد يتناول الأغراض الشعرية المتنوعة ، ولكنه كان يبدع فى الوصف وفى إبراز عواطف الحب الكامنة فى نفسه ، وفى إبداء خواطره الفلسفية التى اقتبسها من تجاربه ومن ثقافته الواسعة التى روضت فكره على التعمق فى البحث والامعان فى الملاحظات .

فقد تحدث فى شعره عن الإنسان وعن سر وجوده وعن عجزه عن معرفة سر الكون الغامض وعن حاجته إلى الإيمان ، كما عبر عن كثير من خوالجه وتأملاته وارتساماته التى كانت مرآة لآرائه فى الحياة ومن ذلك قوله :

ما وجدنا من البرية إلا ... خلقا زائفا وجهلا مبينا[1]
حشرات لاتعرف الخير والشـ ... ـر وفيها الهلاك للعارفينا

وقوله :

أنصفت مظلوما فأنصف ظالما ... فى ذلة المظلوم عذر الظالم
من يرض عدوانا عليه يضيره ... شر من العادى عليه الغاشم[2]

وقوله :

إذا صاحت الأطماع فاصبر فانها ... تنام إذا طال الصياح على التهم

(١) عن الديوان : الجزء الأول صفحة ٢٦
(٢) عن ديوانه : وحى الاربعين .

وقهر الفتى آلامه فيـه لذة   وفى طاعة اللذات شىء من الألم(١)

والذى يتتبع شعر العقاد يجد فيه طابع التبرم والشكوى ، يظهر ذلك فى جل الأغراض التى نظم فيها ، ولقد كان فيه يحاول أن يخفف بالشعر عن نفسه من حين لآخر ، لكنه لم يزده الورد إلا عطشا فهو الذى يقول(٢) :

ظمآن ظمآن لا صوب الغمام ولا   عذب المدام ولا الا نداء ترويني
حيران حيران لا نجم السماء ولا   معالم الأرض فى الغماء تهـديني
يقظان يقظان لا طيب الرقاد يدا   نيني ولا سمر السمار يلهيني
غصان غصان لا الاوجاع تبليني   ولا الـكوارث والأشجان تبكيني
شعرى دموعى وما بالشعـر من عوض
عن الدموع نفاها جفـــن محزون
ياسوء ما أبقت الدنيـا لمغتبط   على المدامع أجفان المساكين
أسوان أسوان لاصفو الحياة ولا   عجائب القدر المكنون تعنيني
أصاحب الدهر لا قلب فيسعدنى   على الزمان ولا خل فيأسونى
يديك فامح ضنى ياهر فى كبدى   فلست تمحوه إلا حين تمحونى

وهاته القصيدة تعد بحق من أروع قصائد العقاد ، فهى نفثة من نفثاته وعصارة حبة ، ومرآة وضاءة لنفسه الرقيقة الحزينة القلقة .

إنه ظمآن حيران يقظان ، إنه غصان أسوان حزين ، يستعمل الشعر للتخفيف عن آلامه وأحزانه ، ولكن الشعر لا يطفىء أواره كما لا تطفىء

---

(١) عن الديوان : الأول ص ٢٧
(٢) الجزء الثانى من ديوان العقاد ص ١٩٤

الدموع أحزان الجبين ، إنه يعيش وحيدا فى هذه الحياة لا يجد أقاربا يسعده ولا خلا يأسوه ، إنه يتمنى أن تنتهى حياته وأن يمحوه الموت من الوجود لتفنى حسراته وأناته . وهكذا نجد العقاد يصور خوالجه وفيها من رفات الأحزان ما يسترق القلوب ويستجلب المدامع ، ولعل هذا القلق من الحياة هو الذى دفعه إلى الحذر منها وإلى التفكير فى مصير الطارئين عليها ، إنها مادامت حياة آلام وأحزان فاماذا يعمل من جديد على إيجاد أبنائه فيها ، لهذا آثر حياة الوحدة ، فهو من هذا الجانب شبيه بالمعرى الذى كان يقول :

وإذا أردتم بالبنين كرامة   فالحزم أجمع تركهم فى الأظهر

وقد كتب العقاد قصيدة رائعة جعلها حوارا بين المعرى وابنه ، الأبن يريد يخرج إلى الوجود وأن يستمتع بالحياة ، فقد ضاق بالعدم وأحب أن يرى مفاتن الطبيعة وأن يستلذ بمحاسنها ، إنه يتوق إلى رؤية الوجوه الحسان ، ويود أن يرى الورد والأزهار والفلاة والبحار ، ولكن الأب يشرح لابنه أسباب إعراضه ، فيقول عن الحياة :

شرها يا بنى شر ثقيـــل   خيرها يا بنى خـــير قليل[1]

أهلها يا بنى أهل حقود

زعموها إلى الخــلود تؤدى   ما رأينا سوى فناء وحـدا

فيه مود على تجاليد مودى

قف بباب الحياة لا تدخلنها   واعتصم يا بنى ما اسطعت منها

سوف ألقاك — فانتظر — بالوصيد

---

(١) الديوان الثانى ص ١٨٤ .

وكان العقاد جعل هاته القصيدة تعبيرا عما يحس به ، لذلك قدمها بتعليق وجيز قال فيه عن المعرى: إنه والد رؤوف صدأ بناءه عن الحياة رحمة بهم ، فيالها من رحمة لا يعرفها له ابناؤه .

وكان العقاد يقصد من تشاؤمه أن يستغله لاثارة غريزة الخير فى الإنسان فهو إذا صور الرذيلة فانما يريد بذلك أن ينفر الإنسان منها ، وإذا تضايق من معاملة البشر بعضهم لبعض فانما يريد بذلك أن يخفف من سورة الظلم فى النفوس الطاغية عساها أن تشعر بالشر الذى ترتكبه فترق اخلاقها وتعمل للمصلحة الانسانية عامة ، وقد حقق بعض الباحثين أن الأدب كلما كان هادفا إلى إصلاح المجتمعات فهو أدب ايجابى ثورى ، وان قدم فى صورة تشاؤمية.

وقد هاجم العقاد طيلة حياته الشعر الحر ، وثار على الابتذال والعامية والسوقية ورأى الشعر فنا يجب أن ترتفع الأذواق إلى مستواه ، لا أن ينزل هو إلى مستوى الناس ، وكتب فى « مجلة الهلال »[1] يقول :

ليس فى وسع « المتحررين » أن يحاربوا الشعر القديم بتحريره كما يقولون من الوزن والقافية واللوازم الموسيقية ، لأن أوزان الشعر أصيلة عميقة القرار فى طبيعة الشعب كما نرى من أوزان الأزجال والمواويل وتراتيل الفرح والنواح فى كل بيئة من بيئات الحضر والريف . . وبعض هؤلاء المتحررين يجهل أو يتجاهل معنى العروض فيقول إنه يزن الشعر بالتفعيلة وهى كلمة لا فرق بينها وبين ألوف الكلمات فى الأوزان العروضية إذ ليس

---

(١) عدد فبراير سنة ١٩٦٢

فى اللغة كلها تتجرد من أوزان التفاعيل بين فعل وفاعل وفعولن وفاعلاتن ومستفعلن ومفاعيلن وغيرها وغيرها من مركبات الفعل والاستفعال ، وانما يأتى الوزن من جمع التفعيلات معا ويختلف بين بحر وبحر باختلاف التركيب واختلاف حركات الحروف ومن قال إن التفعيلة هى « تصميم » البيت فهو كمن يقول إن الحجر الواحد هو « تصميم » المنزل أو الحجرة أو النافذة أو الباب ، ولن يقوم بناء فوق وجه الأرض على مثل هـذا التصميم .

وقد عجزت هذه الدعوات ـ قديما وحديثا ـ عن المساس بتراكيب الأغانى الشعبية التى يمكن أن يقال انها تستغنى بأنغام الآلات عن الأوزان العروضية ، وعجزت عن المساس بتراكيب الزجل وهى مقياس للشعر الذى يمكن أن يشيع فى اللغة العامية ، فاذا عجز هذا الشعر المتحرر ـ كما يقولون ـ عن الشيوع فى الكلام الدارج فهو أعجز من الشيوع فى اللغة الفصحى ، وهو على هذا أعجز من أن يتهم بالتأثير فى هبوط للشعر الحديث .

ولسنا نبرىء الأسباب الأخرى جميعا ، من هذا التأثير إلا لأننا نستبعد أن تجرد الطبيعة الانسانية من حاسة الشعر فى فترة من الزمن ، لأن التجرد من هذه الحاسة هو بعبارة أخرى مرادف للتجرد من بواعث الحياة .. وقد تقوى هذه البواعث أو تضعف ، قد تصح أو تفسد ، وقد تحسن أو تقبح ، ولكنها لا تموت كل الموت فى وقت من الأوقات .

وقد خلف العقاد ثروة كبيرة من المؤلفات فى الأدب والنقد والدفاع عن الاسلام وتحليل عبقرياته ، وكتابه « ابن الرومى » مشهور ، ومن أوائل كتبه : مراجعات ومطالعات ، وسواها .

وقد حارب بعض الشباب العقاد فى حياته ، وكتب العقاد يقول(١) : إنه يكتب للخاصة ، ولا يسوءه أن يقرأه العامة، وكان يعجب بتوفيق الحكيم ومحمود تيمور ونجيب محفوظ وصوفى عبد الله وجاذبية صدقى فى القصة . . وأكد العقاد أن الشعر الحديث كافة ليس شعرا على الاطلاق ، إذ تنقصه الموسيقى والوزن ، والشعر وزن قبل كل شىء . وقال : إن الأدباء وشبابهم يعيشون فى عصرى أنا ، عصر العقاد .

* * *

(١) المساء الأسبوعى نوفمبر ١٩٦٦

ابراهيم عبد القادر المازنى

(١٩ أغسطس ١٨٩٠ — ١٠ أغسطس ١٩٤٩)

فى المعلمين العليا اتصل المازنى بزميله الشاعر « عبد الرحمن شكرى » وتوثقت الزمالة الصلة بينهما ، واجتمعا ومعهما العقاد على حب الأدب الانجليزى ، وقرأوا للشعراء الانجليز وخاصة مجموعة « الكنز الذهبى » التى اختارها وجمعها « بالجريف » أستاذ الشعر بأكسفورد ، وبدأوا يطعمون شعرهم بالأخيلة والمعانى والصور الغربية ، ويكتبون فى وحدة القصيدة ، ويدعون إلى الأصالة وصدق الشاعر فى العاطفة والاحساس ، وفى التعبير كذلك ، وإلى ظهور شخصيته الفنية ، واستلهام الشاعر للطبيعة ، وتناوله لشتى الموضوعات الإنسانية ، ويحاربون التقليد والزيف والانفعال والتكلف وشعر المناسبات الطارئة .

وصدر الجزء الأول من ديوان شكرى عام ١٩٠٩ ، والديوان الأول للمازنى عام ١٩١٣ ، والأول للعقاد عام ١٩١٦ ، من حيث ظهر ديوان مطران عام ١٩٠٨ ، وديوان انداء الفجر لابى شادى عام ١٩٠٩ .

وحدثت بين مدرسة شعراء الديوان ومدرسة شوقى وحافظ معارك نقدية ، ظهر فيها عام ١٩١٥ كتاب للمازنى فى نقد شعر حافظ ، عنوانه « شعر حافظ » ، وأعان شكرى بعد ذلك انفصاله عن زميليه ، وثارت الخصومة بين ثلاثتهم ، وأخذ شكرى يعيب على المازنى انتحاله لبعض الاشعار الانجليزية ، مما دون فى « الكنز الذهبى » مما أحفظ صدر المازنى عليه .

وفى عام ١٩٢١ أصدر المازنى والعقاد كتاب « الديوان » فى

جزءين ينقدان فيه أحمد شوقى وحافظ إبراهيم ، ونقد المازنى فيه المنفلوطى ، كما نقد شكرى بعد أن مدحه فى مقدمة كتاب «شعر حافظ» .

ويؤمن أصحاب مدرسة الديوان بأن الشعر يجب أن يكون تعبيرا عن وجدان الشاعر وذاته وحياته الباطنية ، وصادرا عن نفس الشاعر وطبعه ، والشعر عندهم تغلب عليه النزعة الوجدانية ، وعند مطراح النزعة الموضوعية — وأساس الحكم بموهبة شاعر عند شعراء مدرسة الديوان هو ظهور شخصية الشاعر فى شعره وصدقه فى الإحساس والتعبير .

وشكرى فى الحقيقة هو الذى الهب إحساس المازنى الفنى ودله على مناحى التجديد .

وقد بدأ المازنى حياته الأدبية شاعرا يتأثر بالشعراء الانجليز وبالشعراء العرب وبخاصة ابن الرومى والمتنبى والشريف ومهيار .

ويأخذ المازنى على شعراء المدرسة المحافظة تفكك الوحدة الموضوعية والعضوية فى قصائدهم ، واسرافهم فى شعر المناسبات وتقليدهم للقدماء ، ويصور ذلك فى مقدمة كتابه «شعر حافظ» الصادر عام ١٩١٥ ، ونقد فيه حافظا . ويدعو إلى رومانسية الموضوع ورمزية التعبير الشعرى ، وإلى الصدق فى الاحساس والأداء فى كتابه «الشعر غاياته ووسائطه» صادر عام ١٩١٥ أيضا .

والمازنى من القصص الكثير ، وله فى فن المقالة الكثير أيضا ، وهو من طليعة الكتاب المحدثين ، وأجاد المازنى فى أدب الترجمة إجادة كبيرة .

فهرست الجزء الأول

الموضوع	الصفحة
تصـــدير	٣
تيار التجديد فى الأدب الحديث	١٧
مدارس الأدب الحديث	٢٤
الشعر العربى الحديث	٣٣
بين المـاضى والحاضر	٣٥
حركات التجديد فى الشعر الحديث	٣٧
مدرسة البعث	٤٣
البارودى رائد مدرسة البعث	٤٣
أمير الشعراء أحمد شوقى	٦٩
شوقى الرائد الثانى لمدرسة البعث	٧٥
شوقى وإمارة الشعر	٨٥
حافظ إبراهيم شاعر النيل	٩٣
عزيز أباظة والمسرح الشعرى	١١٤
محمد مصطفى المـاحى	١٣١
مدارس التجديد فى الشعر المعاصرة	١٣٨
ا ـــ مدرسة الديوان	١٤١
عبد الرحمن شكرى	١٥٨
عباس العقاد	١٨٠
المـازنى	١٩٠

انتهى الجزء الأول ويليه الجزء الثانى

بحمـــد الله وعونه